مفهوم الفضيلة في مصطلح المدينة

د. يسار عابدين* د. بيير نـــانـــو**

الملخص

ارتدت تطبيقات الفضيلة حللاً متعددة في طقوس مصطلح المدينة، فمنهم من وطَّدها بقوة القانون كحمورابي، ومنهم من أخرجها بميزان الخير والشّر كزرادشت، ومنهم من طبعها بالسلام ككونفوشيوس، ومنهم من هندس مدارسها وأعدّ قادتها كفيثاغورث، ومنهم من شرب كأس الموت دفاعاً عنها كسقراط، ومنهم من أسس مراتبها كأفلاطون، ومنهم من انتهجها في أسلوب حياتـــه كديوجين، ومنهم من زينها بجمال الرابط الاجتماعي كأرسطو، ومنهم من رآها قوة عسكرية كبلوتارك، ومنهم من جعلها نسباً جمالية كفيتروفيوس، أو وحدة عالمية خيِّرة كزينون، أو ممارسات نبيلة كشيشرون، ومنهم من رفع منزلتها بحـــب الله حتـــى احتقار الذات كأوغسطينس، أو سلك دروبها على مدارك الصوفية كتوما الأكويني، ومنهم من نبَّه على يوم حسابها بزمن الأزل كدانتي، أو سوَّغ الوسائل جميعها لبلوغها كميكافيللي؛ ومنهم من صورها بالأدب والبلاغة كالجاحظ، ومنهم من تعمق بفلسفتها وربطها بالخير الحقيقي كالفارابي، ومنهم من جمع مراتبها بتناسق أعضاء الجسم كإخوان الصفا، أو صنفها بين الكمال والنقص من جانب العلم والعمل كابن سينا، ومنهم من أنشدها قصائد ملحمية في أعالي السماوات وباطن الأرض كالمعري، ومنهم مـــن أسسها على كيان الحاكم المُطاع كابن ظَفَر، ومنهم من وضعها سياسة في خدمة العامة كابن رشد، أو صاغها اجتماعياً بتراتبية اقتصادية تنموية كابن خلدون، ومنهم من أعادها لترتدي قوانين الطبيعة كمورللي، ومنهم من سافر إليها في خيـــال القـــصائد كبودلير. مُزِقت أثوابها بعجلات الأحداث في القرنين التاسع عشر والعشرين، وباتت التقنيات والبرمجيات الرقمية تـــتحكم فـــي صوغها مع بداية القرن الحادي والعشرين.

بُني البحث على التجربة الأخلاقية حجر أساس ودعوة للحياة في مدينة ارتبطت بطابع هادف، يُراد من ورائـــه تحقيـــق غايـــة الوصول بالفرد إلى أعلى درجات الكمال الإنساني؛ عبر تناول مفهوم المدينة بأسلوب وأدوات ومناهج قديمة تحتاجها المدينـــة العصرية، على نحو يفوق حاجتها للتقنيات والإمكانيات الاقتصادية والخبرات التخطيطية لإتمام عمليـــات التنميـــة وإجـــراءات التطوير، وفي هذا السياق تم وُضِعَ وصف لمدينة خيالية لها الاسم نفسه: "دمشق"، والموقع والمعطيـــات الجغرافيـــة: بـــردى وقاسيون والغوطة متطابقة تقريباً، أضف إلى ذلك تشابه الأشياء كلها، باستثناء الزمن فكان عابراً. ويصل البحث إلى ضـــرورة الدعوة للعمل بمفهوم الفضيلة مفتاحاً لحل مشكلات المدينة جميعها وقاعدة العمليات الإصلاحية والتنظيمية فيها.

الكلمات المفتاحية: المدينة، الفضيلة، الأخلاق، الفلاسفة، دمشق.

*أستاذ في قسم التخطيط والبيئة - كلية الهندسة المعمارية - جامعة دمشق

**أستاذ في قسم التصميم المعماري - كلية الهندسة المعمارية - جامعة دمشق

المقدمة:

طُرح مفهوم المدينة بشكل معاصر من قبل عدد كبير من المتخصصين، تناولوها من حيث الخصائص الاجتماعية، والاقتصادية، والبيئية، والسكانية، والقانونية، والإدارية، والتنظيمية، والعمرانية؛ ووسموها بظواهر، ووصفوها بمظاهر، وخصوها بشروط، وصنّفوها من حيث الحجم والكثافة والوظيفة والنشاط السائد ودرجة تقدمها؛ ومنهم من فصّلها من خلال ثنائية الريف والحضر. استخدموا لإثبات وجهات نظرهم أحدث التقنيات والنظم والبرامج الرقمية والوسائل والأدوات الإحصائية، فكان هناك صخب من النصوص العلمية والأدبية كنظريات تعبّر عن مفهوم المدينة، يصعب ويسهل بآن، تحديد أهمها، أو اعتماد أي منها؛ فالنتائج جميعها كانت تدعي فهم المدينة.

لكن مضمون المدينة كما يراه هؤلاء المتخصصون، حقيقةً، لم يعد بأهمية العودة إلى الوراء أكثر لاستقراء فلسفة وجود المدينة المبدعة أصلاً، كمجتمع يمثل تطلع بنيان دولة ومسيرتها، من خلال قوانين نظمتها، وأهداف تسعى جاهدة بإخلاص للوصول إليها، عندما كانت المدينة قراراً حكيماً يزهو بثوب الفضيلة، مع عَدِّ قناعتها التامة بأنها حلقة مكملة في تاريخ الحضارات الإنسانية المتعاقبة؛ على عكس مدينتنا اليوم التي نالت تعريفات وصوراً ابتعدت لترصد واقعاً عمرانياً/ ثقافياً باتت معالجته شبه ممتنعة، مع وجود أكداس من القوانين، وجنون من التقنيات، وأقصى الإمكانيات، وأحدث الخبرات المحلية؛ بل الأجنبية كذلك؛ ويصعب فهم: كيف يمكن لواضع حجر أساس مدينة دمشق، وباني معبد الإله حدد وجوبيتير وكنيسة حنانيا وباني المسجد الكبير أن يكون أعظم منا نحن أبناء العصر؟، قياساً بما كانوا يملكونه من مقدرة ومعرفة، وما نملكه اليوم من علوم وإمكانيات وخبرات خارجية؛ وهل يمكن أن يكون إحساسهم بالفضيلة يفوق إحساسنا؟، فهم خَلَّفوا ما لم نستطع معه محاكاته إلا بالعشوائيات والتقليد.

التاريخ سجّل لم يغفل عن تدوين علاماتهم التي تفصح عن وعيهم الكبير بأهمية الوجود التاريخي بين الجميع، القريب والبعيد، ومن يحظى بهذا الإحساس يجب عليه أن يضع علامته التي يفخر بها إلى الأبد مهما كانت متواضعة؛ والمعيب في التاريخ تلك الشواهد التي تحكي عن الإخفاق والاستسلام للواقع، وأقبح السِّيَر التي تحكي عن التشبه والاستعارات، والحضارة تتكلم عن أمة وعصر، وثلة لا تصنع المجد، والمهم أن يعي الجمهور أهمية الوجود التاريخي؛ وليست المهمة الأصعب الحفاظ على تلك العلامات الغالية؛ بل في صنع أفضل منها، ذلك الأفضل الذي يتعلق بالأنساب والأسباب، وصناعة التاريخ تبدأ من الانتماء لحضن التاريخ، والحداثة هي النمو في قمة شجرة التاريخ.

يعتمد هذا البحث على التجربة الأخلاقية نقطة انطلاق كما في أي بحث فلسفي، ويقصد بها كل تجربة يعانيها الإنسان حين يستخدم إرادته، سواء أكان من أجل تحقيق مقصد ذاتي، أم من أجل تغيير البيئة المحيطة به، أو التأثير في غيره من الناس؛ فالحياة الأخلاقية في المدينة ارتبطت منذ البداية بطابع هادف يراد من ورائه تحقيق غاية محددة، تدور حول الوصول بالفرد إلى أعلى درجات الكمال الإنساني؛ ولا يأتي هذا البحث لينقض وجهة نظر علمية تخصصية؛ بل يؤكد أهميتها عند تناول المدينة، ولكن تسعى هذه المحاورة لاعتماد مفهوم الفضيلة في هذه العلوم، بعيداً عن مفهوم التسوية والإصلاح والتعديل والملاءمة والحلول الوسط؛ بل تأسيساً على المثل العليا، فقاعدة بناء منتج سليم أفضل من استراتيجيات مداواة المعتل.

وعلى هذا فإن **أهمية** البحث تأتي من تناوله مصطلح المدينة وفق المفاهيم القديمة التي أُسست عليها المجتمعات القديمة، والتي تحتاجها المدينة العصرية اليوم بشكل يفوق حاجتها إلى التقنيات والإمكانيات الاقتصادية والخبرات التخطيطية لإتمام عمليات التنمية وإجراءات التطوير، وتزداد أهمية هذا البحث في استعراضه الفضيلة والفلسفة الأخلاقية والمنطلقات الفكرية السليمة، والخلفيات المعافاة التي يمكن لها تحقيق الإنجازات وتوفير الأصالة والجمال في المنتج الأساسي والكمالي على السواء، وضمن أية إمكانيات مهما ضاقت أو وسعت، وفي كل الظروف والضغوط.

والقيم الأساس الذي تقوم عليه الحضارة، ويضمن سرَّ بقائها وصمودها عبر التاريخ، وتتجلى **إشكالية** البحث في رصد قصور ملحوظ في الإنجازات التنموية العمرانية التي تحظى بها مدينة دمشق، فانتشار ثقافة مخالفات البناء، والتعدي على مكونات المدينة وأملاك الدولة، وتشويه المباني التاريخية التراثية والمشهد الحضري عموماً؛ وظهور أنماط من العمران المستورد الذي يراعي المتطلبات الاقتصادية للمستثمرين دون النظر في هوية المدينة واحتياجاتها؛ كل ذلك من شأنه أن يفصح عن ضعف التعامل بمفهوم الفضيلة على الرغم من تأصله في تاريخ المدينة؛ ولا يمكن لعوائد تنظيم المدينة وتطوير عمرانها أن تتحقق، مالم يمتلك القاعدة الناس جميعاً الأخلاقية اللازمة للإقلاع بعملية التنمية؛ فالفضيلة ركيزة أساسية لبناء المدينة بغض النظر عن الإمكانيات المادية.

و**هَدَفَ** البحث إلى بيان أهمية الفكر والفضيلة في التعامل مع مكونات المدينة، وذلك من خلال محاور رئيسية تعتمد على منهج استقرائي تحليلي للمقولات؛ تبدأ في تأسيس مصطلح المدينة ومفهوم الفضيلة وتاريخهما من خلال النظرة الفلسفية عند بعض الثقات من رجال العقل الذين قلما يختلف الناس على حكمتهم، بغاية اعتماد الجوانب العلمية للمصطلح والمفهوم، وينتهي متن البحث إلى قراءة تاريخية نقدية لإجراءات الفضيلة في واقع مدينة دمشق من خلال نصوص وصفية أدبية، من وجهة نظر مفادها يكمن في ضرورة توافر الفضيلة في حياة مدينة دمشق وإجراءات تطويرها، إلى جانب الإمكانيات وحداثة أساليب المعالجات، وفي الخاتمة يخلص البحث إلى عدد من النتائج التي تأخذ أهميتها من خلال انعكاسها على عدد من المقترحات التي تؤسس للعودة بالعمل وفق مفهوم الفضيلة في مصطلح المدينة.

الفضيلة بالمدينة:

يحتاج تناول مصطلح المدينة City بشكل معاصر إلى عدد كبير من الإحصائيات والبيانات والخرائط والمصورات، وإلى عدد أكبر من المناهج والأدوات لرسم عدد من السيناريوهات التخطيطية التي تولد بدورها عدداً من المقترحات التنبؤية المرنة ذات المواصفات القياسية المناسبة للسكان والمكان، وذلك على يد إدارة جيدة وخبراء متخصصين؛ ومع إمكانية توافر ذلك بسهولة، إلا أن الصعوبة تكمن في تناولها بإطارها الأوسع: Policy التي تعني في المجمل توافر مفهوم الفضيلة بوصفها ثوباً واسعاً يتسع للتعامل مع مكونات ما اصطلح عليه في المدينة، فتوافر الفضيلة كمحور فلسفي لأي نشاط منهجي نظري أو مهني عملي مهما يكن، سينقذ المدينة من التعريفات التي توصّل إليها المعاصرون كالتفكك الاجتماعي، والخلل الاقتصادي، والازدحام السكاني، والتلوث العام، والفساد الإداري.

ويجب التفريق بين المفهوم الحالي للمدينة: City الذي يعبّر عن توافر مجموعة من مكونات تجمع سكاني من أبنية وخدمات ومرافق وإدارة ووسائل مواصلات واتصالات وغيرها من المقومات، وبين المدينة ضمن المفهوم الأوسع: Policy، أو دولة المدينة City State

التي تعني حكم مدينة لحيز مكاني محيطي يتراوح بين الريف المحيط، والسيطرة على عدة مدن، وصولاً إلى السيطرة على إمبراطورية مترامية؛ وقد حدد أرسطو شروط قيام دولة المدينة في إطار الإمبراطورية، بتوافر قيم خاصة بالمدينة، ونوع من المؤسسات الضرورية، ونشاط اقتصادي لسبل العيش، وقوة عسكرية للدفاع عن النفس؛ فكانت لكل "دولة مدينة" دساتيرها وقوانينها وآلهتها[1].

وضمن هذا الاتجاه، أخذ يتطور تقسيم الإمبراطورية إلى عدد كبير من "المدن الدول" لها كيانات سياسية وفكر خاصّ، حققت عبرها حياة مشتركة ميزَتُها القوة والإلفة، وانسجام الغايات الأخلاقية، ووضعاً قانونياً لسكان المدينة، يختلف جذرياً عن وضع رعايا الإمبراطورية الأصلية، حيث يعيش الأفراد مندمجين بشكل وثيق بمدينتهم، وكانوا يخضعون للقانون الذي يعبّر عن الخير المدني المشترك، فالمدينة بتفكيكها للمجتمع القبلي، حررتهم من الوصاية الثقيلة للعشيرة العائلية، وجعلت منهم كائنات فردية مستقلة نسبياً، فكانوا مواطنين متحمسين لمدينتهم، ومستعدين للموت في سبيل حريتها، ومع ذلك فإنهم كانوا قادرين على التفكير في أنفسهم بطريقة متميزة، ضمن الإطار المدني، وكان يحق لهم أن ينتظروا من المدينة أن تقدر كل واحد منهم بالقدر الذي كان يعدُّ أنه مساوٍ له.[2]

ويسجل التاريخ أمثلة كثيرة من حالات الدولة المدينة في هذا المفهوم على مدى جغرافي عام، كانت صورتها في إطار منطقة مستقلة تتركز فيها النشاطات السياسية والثقافية في مركز حضري واحد يحكمها قائد؛ والنموذج الأعم لهذا النموذج كناية عن دويلة نواتها المدينة بمفهومها الحالي وتتبعها المدن الصغيرة والقرى المجاورة لها، أو "إنَّها التنظيم السياسي والاجتماعي الموحد لإقليم محدد يمكن أن يشمل مدينة أو أكثر"[3].

وأكثر الأمثلة دلالة على ذلك أثينا وأسبرطة في اليونان، وروما قبل تشكيل الإمبراطورية الرومانية؛ وخلال القرون التي امتدت من نحو عام 500م إلى عام 1500م، عندما أصبحت بعض المدن الألمانية والإيطالية في الإمبراطورية الرومانية ذات حكم ذاتي ومستقلة تماماً، كذلك فلورنسا وجنوة وميلانو والبندقية في إيطاليا، وبريمن وهامبورج ولوبيك في ألمانيا؛ وتتوافر نماذجها في المنطقة العربية مثل دمشق الأمويين وبغداد العباسيين، وتغيّرت صفاتها خصوصاً في مراحل انحدار محطات العصور التاريخية على شكل إمارات ودويلات مثل دمشق وحلب وعكا وطرابلس والقدس، ولا تزال تتجلى نماذجها حتى الحداثة والمعاصرة في شكل سيطرة العاصمة بفارق هائل من الاهتمام وتركز الإمكانيات على حساب باقي أرجاء الدولة.

وتأسيساً على التعريف اللغوي للمدينة في أنها من المُلك والدَين، فيقال للأَمَة[4]: مَدِينة أي مملوكة، ومَدَنَ الرجلُ إذا أَتى المدينة، ومَدَنَ بالمكان أي أَقام به وفق شرع ونظام المكان[5]، ومنه المَدِينة، وهي فَعِيلة، وتجمع على مَدَائن، بالهمز، ومُدْنٍ ومُدُن بالتخفيف والتثقيل؛ وفيه قول آخر: أَنه مَفْعِلة من دِنْتُ أَي مُلِكْتُ؛ وابنُ مَدِينةٍ: أَي العَالِم بأَمرها[6].

---

[1] جورج سباين، **تطور الفكر السياسي**، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ط4، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، 2002.ص: 78.

[2] محمد عرب صاصيلا، **تاريخ الفكر السياسي**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2005. ص: 15.

[3] أحمد سليم قلالة، **الفكر السياسي من الشرق للغرب**، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005. ص:81.

[4] **الأَمَة**: الجارية.

[5] فُسر قوله تعالى في سورة الصافات في الآية /53/: {**إِنَّا لَمَدِينُونَ**} أي مملوكون بعد الموت ومَجْزِيُّون كلٌ بعمله خلال زمن حياته وفق شرع الله عز وجل.

[6] ابن منظور، **لسان العرب**، ج 1، ص: 665.

فالمدينة اصطلاحاً تعني انتماء حدٍّ معين من السكان إلى موقع جغرافي متميز، يتفاعلون على شكل ظاهرة اجتماعية متعدّدة الوظائف، قوامها إدارة وطبقات من السكان يتوزعون وفق صفات اقتصادية وثقافية، في إطار قانون قوي واضح ينظّم العلاقات والأفعال، يضيف مرحلياً نتائج مادية فيزيائية وأخرى معنوية فلسفية تراكمية في المكان.

أما المَدَنِيَّة فمشتقة من المدينة، ومَدَنَ فلان مُدُوناً أتى المدينة وبناها، وتَمَدْنَ تخلق بأخلاق أهل المدن؛[7] فالمَدَنِيَّة تدل على مرتبة سامية وتطور راق حيث تتجمع ظواهر وخصائص وكفاءات في المدن قل أن توجد في القرية[8]. ويشير لفظ مَدَنِيَّة إلى حياة المدن، حيث مظاهر التقدم المادي في أساليب الحياة واستخدام المنجزات المادية، ويدل بهذا على المنجزات المادية المختلفة. والمَدَنِيَّة[9] اصطلاحاً: مظاهر العمران والتقدم المادي والعلمي وهي الأشكال المادية التي تنتج عن الحضارة.

ويقصد بالحضارة الإقامة في الحضر، والحضر خلاف البدو والحاضر خلاف البادي[10]، وعَدَّ ابن خلدون[11] أن الحضارة طور طبيعي في حياة المجتمعات المختلفة كما البداوة، ولكن البداوة أقدم والبدو أصل للحضر والحضارة غاية للبداوة وحسب ابن خلدون، فإن المجتمع لا يتخذ سمة المَدَنِيَّة ولا ينخرط في سلك المجتمعات المتحضرة إلا إذا حقق بعض الشروط الأساسية، أولها أن يكون قد أصاب حداً أدنى من السيطرة على طبيعته البشرية، والاستقرار من أهم شروط الحضارة، ولذا هدف ابن خلدون في حصر هذه الصفة بالمجتمعات المستقرة وعَدِّ الحضارة مناقضة للبداوة المتنقلة.

وتشمل الحضارة كل مظهر من مظاهر التقدم المادي؛ وغالباً ما يحددها سلوك الإنسان وطريقة معيشته وتفاعله مع بيئته، وتختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة سواء أكانت قديمة أم حديثة مظاهر مميزة، والحضارة تشمل كل ما يتعلق بالنظم الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية، وتضم نواحي الحياة جميعها من مظاهر البداوة إلى حياة القرية والمدينة وتطور هذه الحياة ونموها وازدهارها[12].

ومع هذا التداخل، إلا أن المَدَنِيَّة غير الحضارة، وهما لا يختلفان اختلاف نوع، وإنما يختلفان اختلاف مقدار، فالمَدَنِيَّة هي قمة الهرم الاجتماعي والحضارة قاعدته؛.والمَدَنِيَّة موضوع فكري عقائدي ومنهجي، والتحضر موضوع مادي ونسبي قياسي؛ والموضوعان يمارسان في مكان واحد يطلق عليه "المدينة".

وضمن هذا الإطار تفسّر الحضارة بأنها ارتفاق الحياة بوسائل التقدم المادي، وتفسّر المَدَنِيَّة بأنها المقدرة على التمييز بين قيم الأشياء، والتزام هذه القيم في السلوك اليومي، وتحقيق حياة الفكر وحياة الشعور؛ وبهذا فإن المَدَنِيَّة تعني الأخلاق، والأخلاق لغة من الخُلُق: أي السَجيَّة والطبع والمروءة والدين، وهي الصورة الباطنيّة للإنسان.[13]

---

[7] الرازي، **مختار الصحاح**، ج 1، 258.

[8] سلامة نعيمات، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ، ط1، عمان، الأردن، 2000. ص: 79.

[9] المَدَنِيَّة التي نقصدها هنا ليست عكس العسكرية، ولا الحقوق المدنية، وهي ليست عكس الدينية.

[10] الرافعي، **المصباح المنير**، ج 2، ص:566.

[11] ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق: عبدالله الدرويش، 2/1، دار يعقوب، دمشق، سورية، 2004. ج1، ص: 243.

[12] عبد العزيز عثمان بن التويجري، **خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل**، دار النهضة، ط1، القاهرة، مصر، 2002. ص: 31.

[13] ابن منظور، **لسان العرب**، ج 4. ص194

وتمثل الأخلاق حجر أساس بناء المجتمع الأصيل المتكامل، تسهم في السيطرة على نوازع الإنسان وتجعل المجتمع متوازناً وثابتاً؛ فمن دونها لا يمكن لأي مجتمع أن ينهض أو يزدهر وأن يأخذ بأسباب الحضارة الحديثة وسبل تطورها، وقَطْع أشواطاً بعيدة فيها؛ والدارس لتاريخ الأمم والشعوب يدرك نتائج تنكرها للأخلاق وللممارسات الفاضلة.[14]

والأخلاق بوصفها أحد مكونات الشخصية الإنسانية تتكون من مجموعة مقومات تعدُّ العقيدة من أهم العوامل فيها، ثم القيم العليا أو التقاليد والعادات وغيرها التي تمثل بواقعها رسالات أخلاقية في إصلاح النفوس والضمائر بما تحتويه من تعاليم تؤكد بها السلوك السوي.[15] وقد عني الفلاسفة بالأخلاق أشد العناية على أنها حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة، وتوجهوا إلى البحث في الخير الأسمى عن طريق الفضيلة لدى الأفراد على أنها تحقق الخير في الدولة.[16]

ويمكن ألا يقترن التحضر بالتمدن، فتكون الحياة في المدينة متحضرة غير متمدنة، وقد تكون متمدنة غير متحضرة، وقد يجتمع المفهومان أو ينتفيان، مع استمرار إطلاق تسمية "المدينة" على المكان استناداً إلى معايير أخرى مثل: عدد السكان، والمساحة، والترتيب التسلسلي في هرم التجمعات الحضرية، والنشاط الاقتصادي السائد، ونوعية الخدمات المتوافرة، وغير ذلك.

ولمَّا كانت الحضارة واضحة المعالم في النتائج والأهداف والآليات، فإنّها تقاس بقرائنها في المكان نفسه عبر مقاطع زمنية، أو في عدة أماكن في مقطع زمني ثابت؛ على عكس الأخلاق التي يصعب رصدها لدى الأفراد كافة التي غالباً ما تظهر نتائج حجم توافرها في مراحل متقدمة من مسيرة تكوين المنتج الحضاري؛ ولهذا قلما نجد اختلافاً في تحديد درجة الحضارة، فيما ظلت الأخلاق موضوعاً رائجاً في فلسفة الفلاسفة في عصور الفكر البشري جميعها.

وعلى هذا البيان النظري، ونظراً إلى أهمية المرحلة الحالية التي تتناول مدن الدولة ومناطقها بالتنظيم والتخطيط لرسم ملامح المستقبل وأساليب إدارة تنفيذه وتنميتها بشكل مستمر، خصوصاً المدن الكبرى دمشق وحلب؛ ونظراً إلى تزايد الضغوط الاستثمارية وسيطرة نفوذ العلاقات الشخصية الاستثنائية على توجيه التنمية المكانية، ونظراً لأهمية دور المخطط في تطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتحقيق الخير والعدالة والرفاهية للأفراد والمجتمع بعيداً عن المزاجية؛ ومع تجنب تقييم الإمكانيات والخبرات المهنية للمخططين المحليين والخبرات الأجنبية المُستعان بها؛ فإن البحث يؤكد أهمية توافر الجانب الأخلاقي لدى كل من المخطط والإدارة والفرد والمجتمع بكامله عند وضع مواصفات المنتج الحضاري المرتقب في هذه المدن؛ وعلى هذا فقد اعتُمِدَمصطلح المدينة في هذا البحث على أنه كيان تفاعلي يسعى لتحقيق الحضارة بالاعتماد على قواعد أخلاقية عامة.

أما الفضيلة Virtue فهي من مرادفات الحكمة Wisdom، والحكمة هي الفضيلة العليا التي تنشأ من سيطرة القوة العاقلة على القوة الشهوانية ؛[17] والفضيلة لغةً[18] هي:

---

[14] عبدالسلام محمد نجادات، **الأخلاق بين الفلاسفة المسلمين والفلاسفة اليونانيين دراسة مقارنة**، مجلة علوم انسانية، السنة السادسة، العدد 40، جامعة البلقاء التطبيقية- الاردن، 2009. ص: 17.

[15] عبدالسلام محمد نجادات، **الأخلاق بين الفلاسفة المسلمين والفلاسفة اليونانيين دراسة مقارنة**. ص: 26.

[16] عبد الرحمن بدوي، **الموسوعة الفلسفية**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984. ص: 44.

[17] أحمد عبد الرحيم السايح، **الفضيلة والفضائل في الإسلام**، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر، 1997. ص: 25.

الزيادة على الحاجة، أو الإحسان ابتداء بلا علة، أو ما بقي من الشيء، تفيد معنى الدرجة الرفيعة في الفضل. وفضيلة الشيء مزيته أو وظيفته التي قصدت منه، الدرجة الرفيعة في الفضل، أو كماله الخاص به.[19]

والفضيلة في علم الأخلاق عكس النقيصة وخلاف الرذيلة، وهي الاستعداد الدائم لسلوك طريق الخير، أو مطابقة الأفعال الإرادية للقانون الأخلاقي، أو مجموع قواعد السلوك المعترف بقيمتها؛ فالغاية القصوى للفعل الأخلاقي هي اكتساب الفضيلة على أنها طريق لنيل صفات الحكمة والسعادة والعفة والعدل.[20]

وقد ألزم أفلاطون الفضيلة بالعلم وبالخير والعمل بهما؛ وميّزها بالحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، وأضدادها من الرذائل كالجهل والشره والجبن والجور، فالحكمة فضيلة النفس الناطقة، وأمَّا العفة ففضيلة النفس الشهوانية، وأمَّا الشجاعة فهي فضيلة النفس الغضبية، وأمَّا العدالة فهي المحصلة.[21]

ويؤكد أفلاطون أن الفضائل تختلف باختلاف طبقات المجتمع، فإذا كانت العفّة فضيلة العمال، والشّجاعة فضيلة الجنود والحكمة فضيلة الحكّام، فإن المجتمع الفاضل هو المجتمع العادل، الذي تتحقق فيه الفضائل الإنسانية جميعها في وزن واحد من الأنساق.[22]

وعرّفها أرسطو بأنها الاستعداد الطبيعي أو المكتسب للقيام بالأفعال المطابقة للخير؛ ووضعها وسطاً بين مرذولتين، فالحكمة وسط السفه والبله، والعفة فضيلة بين الشره وخمود الشهوة، والشجاعة وسط التهور والجبن، والعدالة وسط الظلم والانظلام؛ واشترط بالفضيلة أن تتم في الاجتماع، لأن الانعزال والتفرد بالأمر يلغي معنى التواضع والصداقة والكرم، والإخلاص وإنكار الذات، وغيرها من مكارم الأخلاق.[23]

وأشار "كَانْت"[24] إلى أن الرجل لا يكون فاضلاً حتى يكون فعله صادراً عن إرادة صالحة تسمى بنية الفعل، وقوام هذه الإرادة الصالحة عنده العمل بمقتضى القانون الأخلاقي المطابق لأحكام العقل دون طمع في ثواب، أو خوف من عقاب، وفرّق "كَانْت" بين الفضيلة والواجب، وأوضح أنَّ الفضيلة هي المبدأ الداخلي للأفعال التي يحقق بها الإنسان كماله الذاتي: سعادته، وسعادة غيره، في حين أنَّ الواجب هو الأمر المطلق الذي توزن به الأفعال.[25]

والحقيقة أن لا خلاف في فهم الفضيلة على أنَّها استعداد دائم لإرادة الخير، عادة فعل الخير، سعي دائم للرغبة في أداء نوع محدد من الأعمال الأخلاقية التي تمثل الحياة: العدل، والشهامة، والعطاء، والشجاعة، والصداقة، والفضائل العقلية هي التي يكون موضوعها العلم والتأمل؛ ويمكن اعتمادها موضوعياً بأنها قناعة الأفراد بأداء مجتمعهم وفق مجمل القواعد السلوكية التي يُعترف بصلاحِها، والفضيلة مفهوم خام نقي وحاجة ضرورية لجوهر الوجدان يمكن للعقل أنْ يعتمدها بنقائها، ولا بأس

---

[18] الرافعي، **المصباح المنير**، ج 2، ص: 571.

[19] ابن منظور ، **لسان العرب**، ج 11، ص: 527.

[20] جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982. ص : 148.

[21] حسام الألوسي، **الفلسفة اليونانية قبل أرسطو**، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، العراق، 1990. ص: 84.

[22] جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ص : 150.

[23] محمد عابد الجابري، **ابن رشد سيرة وفكر: دراسة ونصوص**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،1998. ص:81- 83.

[24] **كانْت**: إيمانويل كانْت Immanuel Kant (1724- 1804) فيلسوف ألماني من مدينة كونغسبرغ، أوجد منظوراً واسعاً جديداً في الفلسفة أثر في الفلسفة حتى القرن الواحد والعشرين. نشر أعمالا مهمة عن نظرية المعرفة، وخلف أعمالا متعلقة بالدين والقانون والتاريخ. وأكثر أعماله شهرة هو نقد العقل المجرد.

[25] إيمنويل كانْت، **تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق**، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1965. ص: 103- 105.

في أنْ يعدلها، والخطر يبدأ عندما يبتكر بديلتها ويتمسك بها.

واستعراض المدينة بفضيلتها هنا، ليس لقصور الفضيلة عند المعاصرين المتخصصين، ولكن للتذكير بأن الفضيلة قديمة قدم التاريخ الإنساني، وفطرة الأغلبية، ومطلبها الحقيقي، وأن الفضيلة متلازمة أساسية ربط الفلاسفة مفهومها بمصطلح المدينة لأنَّ الأخيرة سجل لعقائد المجتمع، وأن الفضيلة مَلَكة خُلُقية يكون المرء بحسبها صالحاً يقوم بما يجب عليه بأحسن وجه للوصول إلى الكمال، فالفضيلة تؤتي أُكلها عند توافر الحكمة والمعرفة، وقوة الإرادة والعزيمة، واعتماد المبادئ والقيم السامية، ومخافة الله واحترام القانون، وإيقاظ الضمير، وتفضيل الجماعة على الفرد؛ وعلى هذا ربط الأقدمون تعريفاتهم بالفضيلة وأسسوا مدنهم عليها.

مع الاعتراف بأن المدينة الفاضلة هي مدينة أسطورية، لم يتمكن أحد من تنفيذها على مدى التاريخ، تحدث عنها جميعهم بأمل وناضل من أجلها بطموح، إلا أن الأسطورة عقيدة فكرية فلسفية وضرورة منهجية في هذا المجال لتشكيل جانب الواقع العملي، فالكينونة الاجتماعية بحد ذاتها لا بدَّ أن تستند إلى الأسطورة، والتغيّرات الحاصلة في بُنية المجتمع تُستوحى من تغييرات أسطورية، وتُوحي بمثل هذه التغيّرات؛ فقد دلَّت النماذج المدرجة عن المدن الفاضلة لدى الشعوب المختلفة على أن الشعوب كافة تتنفس الأسطورة كما تتنفس الهواء، الهواء نفسه، أسطورة المدينة الفاضلة نفسها.

نماذج المدينة الفاضلة:

تناول الفلاسفة مصطلح المدينة على أنه يمثل ظاهرة مكانية خاضعة للتطور الزمني تحتوي على وظائف حياتية مسطرة، ركز عليها الفلاسفة وشحنوها برموز وأبعاد ودلالات مختلفة، لتصبح دلالة فكرية ذات بعد فلسفي بوصفها رؤية حضارية تعتمد على الأخلاق، وقد أفصح تاريخ الفكر الإنساني عن كثير من الشواهد والأمثلة التي تدلُّ على أن المدينة أنارت أو ظللت فضائل فكرية وفلسفية واجتماعية كثيرة على مرّ العصور؛ ومع تعدد مناهج نقد الفلاسفة لمصطلح المدينة، إلا أنهم اجتهدوا وبشتى السبل للحفاظ على جلال مدينتهم وزيادة قدسيتها لديهم.

تعدُّ شريعة **حمورابي**[26] أول مثال لمفهوم مدينة يحكمها قانون تكتسب به صفة الفضيلة، أحاط بجميع ما يتعلق بتنظيم الحياة في ذلك الوقت، بحيث يتمكن الفرد من الحصول على حقوقه من الحرية والعدل والمساواة بما يليق بإنسانيته وكرامته وحقه في حياة حرة كريمة؛ فكان قانوناً يتضمن أحكاماً أساسية تتخطى قدرة الملوك على تغييرها، نقشت بنوده على حجر تعبيراً لديمومتها وسلطتها، وكانت المدونة تتضمن تجميعاً لتقاليد قانونية ترجع إلى عهد أقدم بكثير، فضلاً عن حلول جديدة تتفق مع تطور الحياة المَدَنِيَّة الاجتماعية والاقتصادية في عصره[27]. اهتمت هذه القوانين بالحياة المَدَنِيَّة من مبدأ تكافؤ الفرص بين الأفراد في كل طبقة وبين أفراد الطبقات المختلفة، انطلاقاً من مفهوم توافر الحياة الكريمة وفرص المشاركة في السلطة السياسية، وفرص التربية واكتساب المعرفة، وفرص العمل واكتساب الثروة؛ وعُدَّتِ الدولة في حال تقصيرها مسؤولة عن حماية الأشخاص

[26] **حمورابي**: سادس ملوك مملكة بابل القديمة، حكمها بين عامي 1750- 1795 ق. م، شخصية عسكرية لها القدرة الإدارية والتنظيمية والعسكرية، وحّد بلاد الرافدين: العراق والمدن القريبة من بلاد الشام حتى سواحل البحر المتوسط وبلاد عيلام ومناطق أخرى؛ مسلته الشهيرة المنحوتة من حجر الديوريت الأسود محفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس، تعدُّ من أقدم وأشمل القوانين في وادي الرافدين بل والعالم.

[27] أسامة سراس، **شريعة حمورابي و أصل التشريع في الشرق القديم**، دار علاء الدين، دمشق، سورية، 1993. ص: 71- 130.

والممتلكات. نسجت هذه المدونة مجتمع مدينة بابل[28] في ثلاث طبقات: طبقة الأحرار وتتكون من الملاك الزراعيين والتجار وأصحاب الحرف، وطبقة متوسطة تسمى "الموشكينو" أو المتواضعين، وطبقة العبيد في القاعدة؛ بيد أن التقسيم السابق لا شأن له بالقمة التي تتضمن الملوك ورجال الدين.

بعد أنْ صنف **زرادشت**[29] مجتمعه في ثلاثة مستويات: سادة وعبيد وقطعان، وجه مدينته الفاضلة نحو الشرق حيث الضياء ومطلع الأنوار، وأسسها على مفهوم محاسبة النفس وإصلاح الذات بالسيطرة على الغريزة والعاطفة وتطوير العقل، واستئصال الشر، وعدم الاستسلام للقدر وصولاً إلى مرحلة إلغاء التشريع بالإيمان المعرفي، وعمل على رعاية الحقوق وتكريم الفرد وحفظ كرامته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث، ودعا لفعل الخير من دون انتظار الثواب، وإحلال حياة السلم؛ وضع وصايا عشراً يدعو فيها إلى الاهتمام بالزراعة وتربية المواشي والتحول إلى المَدَنِيَّة، والرأفة بالحيوانات على أنها مخلوقات الله، واحترام الناس وعدم الاعتداء على الآخرين والرأفة بالضعيف، واحترام العلاقات بين القبائل والأقوام المجاورة. ويعتقد زرادشت أن العقل البشري يمر بأربع مراحل[30]، تبدأ بالفطرة الخيِّرة التي تقود العقل البشري، ثمّ مرحلة شريعة الغاب التي تطغى فيها الغريزة، بعد ذلك ينتقل العقل إلى مرحلة صراع[31] الخير والشر، وتنتهي المراحل بانتصار الخير، ليخرج الإنسان من النسبية إلى الكمال، بامتلاكه النقاء، ويكون التشريع بالإيمان المعرفي، ويصبح الإنسان غاية الوجود، وينتهي التكوين.

ارتكز **كونفوشيوس**[32] في بناء مدينته الفاضلة على أربع ركائز رئيسية تتشعب عنها القيم الأخلاقية كلها، هي: الإنسانية، والاستقامة، والطاعة، والطقوس والشعائر؛ مستهدفاً بذلك تحقيق التماسك الاجتماعي في المدينة، ورفض مبدأ القوة في إصلاح الأمور، وجعل الأفراد أساساً في تكوين المدينة، ونصب عليهم الرجل النبيل حاكماً مثالياً واجبه توفير السعادة للأفراد، ووصف طبيعة العلاقة بينهما بالأبوة القائمة على الطاعة من العامة، والعطف والإخلاص من جانب الحاكم. واعتقد كونفوشيوس بفطرية توافر القاعدة الأخلاقية، بعدم انفصالها عن النفس، فالإنسان لا يفعل الشر عن علم بل عن جهل، ولكنه لو عرف الخير لاتجه إليه، فالجهل شر والخير علم؛ ويؤكد أن الجمال يمكن أن يتوافر في كل شيء، ولكن رؤيته لا تتوافر لدى الناس جميعاً، وربط ذلك بالقيم الإدراكية والسلوكية للفرد والمجتمع، ولقّب الرجل الذي يعي الجمال بالفاضل، ويرى أن للفن وظيفتين

---

[28] **بابل**: باب إيل أي باب الله باللغة الآكادية، هي بلاد أكاد وسومر أو بلاد بين النهرين.

[29] **زرادشت**: هو زرادشت بن يورشب من قبيلة سبتياما، اختلفت المصادر في تحديد مولده ويعتقد أنه ولد في القرن السادس قبل الميلاد ، فيلسوف إيراني قديم، مؤسس الديانة الزردشتية، رجل مصلح بدأ أمره طبيباً بارعاً، وحكيماً وفيلسوفاً، حاول الوصول إلى سر الكون بالنظر والتأمل العقلي، تم العثور على لوحة تحتوي على صورة زرادشت في سورية تعود إلى عصر البارتيين.

[30] أسعد السحمداني، **الصائبة، الزرادشتية، اليزيدية**، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1997. ص: 76.

[31] يتمثل الصراع بين الخير في الإله" أهورامزدا"، والشر الذي يمثله الإله" أهرمان"، وأهورامزدا لا يمكن أن يكون مسؤولا عن الشر؛ لأن الشر جوهرٌ، مثله مثل الخير، وأن هاتين القوتين وجهان للموجود الأول الواحد.

[32] **كونفوشيوس**: (551-471) ق.م من المفكرين البارزين، والفلاسفة السياسيين في تاريخ الصين، وقد امتد تأثير أفكاره إلى العالم بأسره، وله مؤلفات عديدة، منها ما اشتمل على الأغاني والموسيقى القديمة، وفلسفته تقوم على عدم مناهضة الشر بالشر، والرد على العدوان بالمثل؛ بل السمو والترفع عن ذلك من خلال الفن، وانعكست بذلك العقائد الدينية على الفن، وأصبحت ممارسة الفن عند الصينيين كالعبادة، فيها نشوة الاتصال بالخالق.

مهمتين، الأولى تربوية أخلاقية، والثانية معرفية تسهم في رفد الوعي الثقافي والاجتماعي فربطه بالفضيلة، وقد أولاهما اهتماماً استثنائياً، لما لهما من أثر في إصلاح النفس البشرية، كونهما ينبعثان من ذات الإنسان، ومدى تأثره بالعالم الخارجي؛ ويذهب أبعد من ذلك عندما يعتقد أنَّ الفضيلة لا توجد إلا عندما تجد من يطبقها[33].

استخدم **فيثاغورث**[34] في بناء مدينته منهجاً رياضياً اعتمد فيه على الفرضيات والإجراءات والإثبات بالاختبار، من خلال نظام رياضي دقيق يضع الأمور في نصابها الحقيقي دون زيادة أو نقصان، وأسس مدرسته بهدف تكوين شخصيات، وتجهيزهم كقادة مستقبل لحكم الحضارة الجديدة، على أنها المهنة الأكثر مسؤولية التي تحتاج إلى نوع من التحضير التعليمي السامي، مقترحاً حكومة يديرها الحكماء، بدل أن يحكمها السياسيون، يرأسها خبراء متعلّمون مؤهلّون بشكل خاص، فكما تحكم الخلايا الأعضاء المتنوعة في الجسم، يجب أن تكون حكومة الدولة حاملة علاقة مشابهة إلى شعوبها، فهي حكومة علمية مثلما هي إنسانية، مخصصة بإخلاص للخير العام الأعظم وللعدد الأكبر من الناس خادمة لهم؛ وتتلخص نظرية فيثاغورث السياسية بأن الحكومة يجب أن تكون للشعب، مثلما يكون الأب العاقل للطفل[35] ؛ ونجح فيثاغورث في إشادة مجتمع في القمة المشرفة على مدينة "كروتونا"[36]، على شكل مدينة نموذجية مصغرة، كانت كُلية وجَالية في وقت واحد، وكان هو على رأسها ــ"فيلسوف مَلك"، حكمها بالحكمة والنزوع إلى عمل الخير؛ ولمّا كان المثل الحيّ أكثر قوة من مجرد نظرية، فقد مارست هذه المدينة النموذجية تأثيراً هائلاً في إيطاليا كلها، وكسبت لقب "المدن الحرة" بعد أن قُبلت عقيدة فيثاغورث المثالية.[37]

سقراط[38]، ومن خلال دعوته إلى البحث عن الحقيقة، عدَّ أن المعرفة العلمية أساساً لكل فلسفة، وأن المعرفة الحقة لا يمكن إدراكها عن طريق الحواس، لأنها تختلف باختلاف الافراد والحالات في الشخص الواحد، وأن معرفتها جزئية؛ أمَّا المعرفة الحقة فهي مرتبطة بالعقل؛ لأنه عام في الناس جميعاً، ترتبط المعرفة عند سقراط بالفضيلة، فلا فضلية بلا معرفة؛ ويقرر في محاوراته أن الحكام يجب أن يكونوا من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يحكمون بالعقل، وليس بالضرورة أولئك الذين يتم انتخابهم؛ وأن العقل هو مملكة المفاهيم، واعتمد على قاعدة: العقل السليم في الجسم السليم؛ وتهدف رؤيته إلى بناء مجتمع قوي وحضاري من خلال فلسفة تجمع بين

---

[33] هالة أبو الفتوح أحمد، **فلسفة الأخلاق والسياسة: المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس**، دار قباء، القاهرة، مصر، 2005. ص: 8- 21، المقدمة بتصرف.

[34] **فيثاغورث**: (572–500) ق.م، أو فيثاغورس الساموسي، فيلسوف ورياضي إغريقي، عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وتنسب إليه مبرهنة فيثاغورث. تحاك حوله العديد من الروايات والأساطير، في شبابه قام برحلة إلى بلاد بين النهرين. اهتم اهتماماً كبيراً بالرياضيات، وخصوصا بالأرقام، وقدس الرقم عشرة لأنه يمثل الكمال، كما اهتم بالموسيقى وقال: "أن الكون يتألف من التمازج بين العدد والنغم". أجبر فيثاغورث أتباعه من دارسي الهندسة على عدة أمور، مثل: ارتداء الملابس البيضاء، التأمل في أوقات محددة، والامتناع عن أكل اللحوم والفول.

[35] حربي عباس وعطية محمود، **الفلسفة القديمة من الفكر الشرقي إلى الفلسفة اليونانية**، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1999. ص: 82- 123. بتصرف واختزال.

[36] **كروتونا**: مدينة إغريقية تقع ضمن الأرخبيل اليوناني في جنوب إيطاليا. معقل فيثاغورث والفيثاغورثيين.

[37] مصطفى النشار، **تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي**، دار قباء، القاهرة، مصر، 2000. ص: 249.

[38] **سقراط**: (470-399) ق.م فيلسوف كلاسيكي يوناني، من مؤسسي الفلسفة الغربية، شخصية غامضة، لم يُعرف إلا من خلال روايات كلاسيكية من طلابه وحوارات أفلاطون، اشتهر بفلسفة الأخلاق والمعرفة.

الرياضة والفن من أجل خلق جيل قوي معافى يمتلك الذوق الجمالي والشعور المرهف، فهو ضد الخشونة والنعومة على السواء، ويعتقد أن التوفيق بين هذين الخُلقين، بشد الواحد، وإرخاء الآخر كأنهما وترا الحياة؛ وكان هدفه تأسيس مدينة مبنية بوضوح في الطبيعة المجردة للأخلاقيات كالعدل والشجاعة، بدل المضي خلف عقائد السلف، مثبتاً أن الآثام كلها وليدة الجهل، وأن الناس لو عرفوا ما الحق، ما وجدوا صعوبة في اتباعه؛ وقد أدرك سقراط أن للجمال والفن شأناً خارقاً في تهذيب النفوس، وأن من حسنت ثقافته الجمالية يمتلك نظرة ثاقبة في معرفة هفوات الفن وفساد الأخلاق ورصدها. وقد بالغ سقراط في سعيه لبناء مدينته بالفضيلة والتزامه الصارم بالحقيقة، لدرجة تحديه للموت الغالب.[39]

يرى **أفلاطون**[40] في مدينته الفاضلة، أن قوام المدن يأتي من خلال الاهتمام بالإنسان وثقافته ومبادئه وعلاقاته طبقاً لمنظومة حِكم توزع المهام فيها حسب المهمة الوظيفية الموكلة لكل طبقة من المجتمع؛ ووجد بين المدينة والنفس شبهاً قوياً، فللمدينة ثلاث وظـائف: الإدارة والدفاع والإنتاج، تقابلها في النفس قوى ثلاث: النـاطقة والغضبيـة والشهوانية،[41] وبهذا فإن المدينة تتركب من طبقات الحكام والجند والشعب، ثلاث طبقات متدرجة في السلم القيمي، وكأنه يحاول أن يوفّق بين نظام النفس كما خلقت، وتنظيم المدينة كما يجب أن يكون، حتى لا يخرج بها عن الفطرة، كل هذا ضمن نظام تراتبي استثنى منه الشعراء والفنانين وأبعدهم، لأنّه عدّهم مصدر فساد ومنبع رذيلة وتسميم للعقول[42].

بنى **ديوجين**[43] فلسفته من خلال نقد تقاليد المجتمع، وآمن بأن الفضيلة تظهر في الأفعال وليس في النظريات، وأمضى حياته حملة بلا هوادة لهدم قيم المجتمع ومؤسساته التي كان يظنّها فاسدة، وآمن عموماً بأن سعادة الإنسان لا يمكن أن تكون مادية، أو أن تسببها مؤثرات مادية. وجعل من التواضع والفقر فضيلة، وأن "سوء الطالع" مهم لبناء شخصية قوية، وأن التطور المهني الصناعي للمجتمعات لا يمكن أن يمنح السعادة، بل تكمن السعادة في العودة إلى الطبيعة والبساطة؛ وهو يزدري القيم المَدَنِيَّة عامة، ويعتقد أن الحكمة تكمن في الاستقلال عن المَدَنِيَّة، وحاول إقناع الناس بعدائية المَدَنِيَّة؛ وفي حين كانت تتحدد هوية الأفراد بانتمائهم لمدن معينة، أعلن ديوجين في مواقف كثيرة أنه ينتمي إلى العالم أجمع وليس إلى مدينة معينة. وكان يعتقد بقدرته على مداواة أرواح البشر وتهذيبها، ويؤمن بالعيش مثل حياة الحيوانات بوصفها نموذجاً للإنسانية، لأنه كان يعتقد أن الأنساب، والثروات لا تُعين الإنسان على عيش حياة أفضل.

---

[39] أفلاطون، **محاكمة سقراط**، ترجمة: عزت قرني، سلسلة محاورات أفلاطون، دار قباء للنشر، القاهرة، مصر، 2006. ص: 8- 32.

[40] **أفلاطون**: (427-347) ق.م هو أرسطوقليس، أشهر فلاسفة اليونان على الإطلاق، ولد في أثينا من عائلة أرسطوقراطية. أُطلق عليه لقب "أفلاطون Plato". يقال إنه في بداياته تتلمذ على السفسطائيين وعلى كراتيلِس، تلميذ هراقليطس، قبل أن يرتبط بمعلّمه سقراط في العشرين من عمره. عرف من خلال مخطوطاته التي جمعـت بـين الفلـسفة والأدب والفن. كانت كتاباته على شكل حوارات ورسائل وإبيغرامات؛ والإبيغرام: قصيدة قصيرة محكمة منتهية بحكمة وسخرية.

[41] حسام الألوسي، **الفلسفة اليونانية قبل أرسطو**. ص: 63- 68.

[42] قادة عقاق، **دلالـة المدينـة في الخطاب الشعري العربي المعاصر دراسة في إشكالية التلّقي الجمالي للمكان**، اتحاد الكتّـاب العـرب، دمشق، سورية، 2001. ص: 24.

[43] **ديوجين**: (412-323) ق.م، هو ديـوجين اللائرسـي Diogéne Laérce أو ديوجين الكلبي، فيلسوف إغريقي. وُلد في سـينوبة فـي تركيا، ومات في كورينث، تم نفيه إلى أثينا، وهناك أصـبح تلميـذاً لأنتيسِتنيس الذي كان تلميذاً بدوره لسقراط، كان ديوجين شحاذاً يقطن شوارع أثينا. جعل من الفقر المدقع فضيلة. ويقال إنه عاش في برميل كبير. وإنه مشى يحمل مصباحاً في النهار يبحث عن رجل فاضـل، كانت حياته طبيعية ولم يعتمد على مباهج المدنية.

حدد **أرسطو**[44] في كتابَيّ "الأخلاق الأوديمية" و"الأخلاق النيقوماخية"،[45] قيمة المدينة من خلال الرابطة الاجتماعية وحميميتها بالمجتمع، وربط تجسيد المدينة لفعل التنظيم، وتحقيقاً لنظام الجمال الأرضي، وعلاقته بالنمط الحضاري المميَّز من حيث كونها أساساً للنبع الثقافي، فالمدينة تجسّد مركز التعامل الإداري لتسيير شؤون الحكومة وما يتولد عنها؛ وبهذا، فإنها مسرح محاورات، يتحكّم فيها الوسط التقليدي الملطف الذي تفاعل معه سكانها لأنّه يجذب إليهم بسخاء كل ما يحتاجونه من دون عناء.[46] ولذلك أحبّوها وارتبطوا بها ارتباطاً روحياً عميقاً، فكانت المدينة بيت المجتمع، والشارع فضاء الجميع، الكلّ يتفانى في خدمتها، ويعمل على حفظ جمالها وإدامة استقرارها، ويبذل أغلى ما لديه للدفاع عن أمنها الداخلي والخارجي[47]، على أساسٍ متين من تكامل الأفراد جميعهم في الجماعة، وفق مفهوم مدينة فاضلة عادلة[48].

في أسبرطة قدم **بلوتارك**[49] مدينته الفاضلة من خلال أسطورة القائد ليكورجوس[50] الذي اعتمد على إدارة مجلس الشيوخ في تسيير شؤون مدينته، من خلال إعادة تنظيم ملكية الأراضي، وإلغاء الفوارق والطبقات بين أفراد الشعب، ومحاربة الفساد المتأصّل في أجهزة الدولة، وألغى مظاهر الترف جميعها، واعتمد مفاهيم البساطة في كل شيء بعيداً عن الفخامة والإسراف في النفقات، وأكّد نوعيةً من العيش التي تهتم بالتربية الأخلاقية وتأديب النفوس بالزهد، وتقوية الجسم وتعلم فنون الحرب، وخرج بنموذج شمولي متطرف ليكون ملهماً للإدارات التي اهتمت بالحروب مثل نابليون وستالين.[51]

من خلال إيمان راسخ بالحاكم المطلق للمدينة، يرى **فيتروفيوس**[52] أن جمالها يتحقق بإحكام النسب واستخدام المقاييس الإنسانية في العمران وإظهار قوتها وتحصينها وديمومتها في شروط بيئية مناسبة، على يد معماري أخلاقي منتم لمجتمعه، محترف بصنوف العلوم الهندسية، وملم بالعلوم الطبيعية والفلكية والطبية وعلى رأسها البيئية، مغرم بالموسيقى والشعر والأدب؛ ووضع

---

[44] **أرسطو**: (384- 322) ق.م، أرسطوطاليس، أو أرسطاطاليس، فيلسوف إغريقي، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، كتب في العديد من الموضوعات، بما في ذلك علوم الفيزياء والميتافيزيقا، والشعر، والمسرح، والموسيقى، والمنطق والبلاغة والسياسة والحكومة، والأخلاق، وعلم الجمال، والبيولوجيا، وعلم الحيوان. وهو من أهم الشخصيات في تأسيس الفلسفة الغربية.

[45] نشرت دروس أرسطو الأخلاقية في كتابين: أحدهما الأخلاق الأوديمية (Ethics Eudemian) وهو شرح لتلميذه اوديموس، والكتاب الآخر الأخلاق النيقوماخية (Nichomachean Ethics) الذي ينسب الى ابنة نيقوماخوس إذ ترجح حوله الآراء في أنه يعبر عن أراء أرسطو الأخلاقية الذي يظهر إن مسيرة أرسطو الأخلاقية كانت في الاتجاه نفسه لكل من سقراط وأفلاطون.

[46] توفيق الطويل، **فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها**، ط4، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1979. ص: 122.

[47] محمود شريح، **تجربة المدينة في شعر خليل حاوي**، الفكر العربي المعاصر،ع 10، شباط 1981. ص: 89.

[48] خلف الجراد، **علم السياسة ومقدماته اليونانية**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2008. ص: 19.

[49] **بلوتارك**: بلوتارخ، أو پلوتارخوس (120-46) ق.م مؤرخ وناقد يونانى كبير، يعدُّ من أكبر مؤرخي السير والتراجم فى العالم القديم. كتب "سير متوازيه" نسج فيه مقارنات بين الشخصيات اليونانية والرومانية بموضوعية ونزاهة، وكتب محاورات ومقالات أخلاقيه.

[50] **ليكورجوس**: (700 - 630) ق.م، أحد المشرعين اليونان القدامي، ظهر اسمه كقائد لحركة إصلاح مشهورة في تاريخ اليونان، يعدُّ من أوائل المنادين بمبدأ البناء الذاتي للدولة من خلال مواردها الداخلية.

[51] ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، بيروت، دار الجيل، 1408هـ / 1988م، ج3، م1، ص102.

[52] **فيتروفيوس**: هو ماركوس فيتروفيوس باليو " Marcus Vitruvius Pallio"، مهندس معماري روماني، ولد بين 80 و70 ق.م وتوفي عام 23م، عمل مهندساً حربياً تحت إمرة القيصر في أفريقية، وشارك في فتح اسبانيا وبريطانيا، وكان مهندساً معمارياً في عهد "أوغسطس"؛ واعتزل العمل الرسمي في شيخوخته ليضع أصول أعظم الفنون الرومانية بكتابه المسمى: "الكتب العشرة في العمارة".

فيتروفيوس نظاماً هندسياً محكماً لتكوين مدينة تنسجم جمالياً مع أجزائها ومكوناتها وفق تركيب وظيفي، بدءاً من توزيع هياكل الآلهة والمعابد، وانتهاءً بتوجيه غرف المنزل، مستنداً بذلك إلى مجموعة من قوانين التنظيم العمراني الدقيق، واضعاً بذلك أول وثيقة تاريخية في تنظيم المدن وإظهار جمالياتها؛ حدَّد فيها المكونات المعمارية والعمرانية للمدينة وفق نشاطها وحجم سكانها، ونثرهم وفق انسجام وظيفي/ جمالي على شبكة محكمة من خدمات البنى الهندسية الأساسية، موضحاً فلسفة الشكل الخارجي في المنتج، ومواد بنائه وطرقها وأماكن توافرها.[53]

بعد هذه المرحلة، اتجهت أفكار بناء المدينة الفاضلة إلى شمولية واسعة تنظر إلى العالم كله بوصفه مدينة واحدة، أو نموذجاً واحداً يمكن تكراره، تنادي بالقانون الطبيعي، وتبشّر بالمواطن العالمي، من خلال إعطاء العقل منزلة رئيسية للتنظيم؛ فكانت الدولة الرومانية عبارة عن مدينة مكررة في الشكل والمضمون في أرجاء الإمبراطورية، تحكمها نصوص ونظريات فكرية فلسفية وقانونية.

من أكثر المعنيين بهذه النظريات تلامذة الفكر الفلسفي اليوناني، مثل: زينون[54]، وبوليبوس[55]، وشيشرون[56].

وقد اعتقد **زينون** أن لكل الناس إدراكًا داخل أنفسهم، يربط كل واحد بكافة الناس وبالحق الإله الذي يتحكم في العالم؛ أدى هذا الاعتقاد إلى قاعدة نظرية للكون، وهي فكرة أن الناس هم مواطنو العالم، وليسوا مواطني بلد واحد، فنادى بالدولة العالمية، وعمل على فكرة المواطن العالمي؛ وقادت هذه النظرة إلى وجوب الإيمان بقانون طبيعي يعلو على القانون المدني، ويعطي معياراً تقوَّم به قوانين الإنسان، ورأى أن الناس يحققون أعظم خير لأنفسهم، ويبلغون السعادة باتِّباع الحق، وبتحرير أنفسهم من الانفعالات، وبالتركيز فقط على أشياء بوسعهم السيطرة عليها على أساس أن الكون إبداع إلهي يهدي الأشياء ويوجِّهها ويتحكم فيها لتصل في النهاية إلى كل ما هو طيب وحسن، ولابد للعقلاء من الناس أن يوائموا رغباتهم مع طبيعة الأحداث، وسوف يجد هؤلاء سعادتهم في التحرر من الرغبة، والتحرر من الخوف والشرور والآثام، وفي إدراك أنهم يعيشون في تناغم وانسجام مع الغرض الإلهي الذي يواجه الأشياء.[57] كان الرواقيون يفهمون الحياة الفاضلة على أنَّها علاقة النفس بالله، أكثر مما هي علاقة المواطن بالدولة وبذلك مهدوا الطريق أمام المسيحية التي كانت كالرواقية على نقيض السياسة[58].

---

[53] فيتروفيوس، **الكتب العشرة في العمارة**، إعداد: يسار عابدين وآخرين، منشورات جامعة دمشق، دمشق، سورية، 2009. ص: 34- 45 بتصرف.

[54] **زينون الرُّواقي**: Zinoun، (335-265) ق.م، مؤسِّس الفلسفة الرواقية في أثينا. كنعاني سوري ولد في مدينة سيتيوم أو كيتيوم التي أسسها الكنعانيون في جزيرة قبرص. كان في الأصل تاجراً، لكن تجارته تدهورت وفقد ممتلكاته كلها ورحل إلى أثينا في عام 314 ق.م، ومكث هناك حيث درس الفلسفة، وكان يلتقي بتلامذته في رواق، ومنه اشتُق منه اسم المذهب الرواقي.

[55] **بوليبوس**: Polybus، مؤرخ يوناني (198- 117) ق.م، يحتل مكانة مهمة في المنهجية اليونانية، كان يؤمن بأن دراسة التاريخ خير وسيلة لتعلم الفلسفة، من خلال دراسة العبر والتجارب، فالإنسان يتعلم من أخطاء غيره، واعتقد أن تزويق الكلام وتنسيقه واعتماد الأساطير لا يخدم الهدف الذي يدرس التاريخ من أجله، وطالب أن يكون التاريخ سليم النتائج، خالياً من الغش ليؤدي غرضه.

[56] **شيشرون**: Cesheron، فيلسوف يوناني (106-43) ق.م، عاصر صراعات بين النبلاء أي بين الجمهورية والأرستقراطية، تأثر كثيراً بأفلاطون ودرس في بلاد اليونان، وأكد قيمة العقل.

[57] جلال الدين سعيد، **فلسفة الرواق دراسة ومنتخبات**، سلسلة العلوم الإنسانية، مركز النشر الجامعي، الاسكندرية، مصر، 1999. ص: 55- 58.

[58] برتراند راسل، **المجتمع البشري بين الأخلاق والسياسة**، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، د ت. ص: 189.

أمَّا **شيشرون** فعبّرعن نموذج مدينته الفاضلة في مستهل كتابه "الجمهورية" مشيراً إلى أن الإنسان لا يكون متعلّقاً حقًّا بالفضيلة كفن من الفنون إلا إذا مارس هذا الفن، وكل فن رهين بمعرفة الإنسان له؛ إلا أن الفضيلة فن رهين بممارسته، وأنبل مجال لممارسته هو المجال الأخلاقي الاجتماعي على مستوى المدينة وإدارتها، بحيث تحقّق عملياً المبادئ والحقوق التي يمليها الفلاسفة في التشريعات التي تسن؛ ويرى في إعداد المواطن الصالح الذي يحترم حدود الفضيلة المعممة بالقانون، ويخضع لشرائع الأحكام بشكل أكبر من الذين يعلمون هذه المبادئ[59]؛ ويعتقد قانوناً طبيعياً عاماً يحكم العالم من صنع الحكمة الإلهية، قائماً على الحكمة والتفكير السليم، صالحاً لكل زمان ومكان، لا تجوز مخالفته بقوانين بشرية، وأن الخالق يحافظ على هذا القانون الذي لا يحتاج إلى مفسرين، ونادى بالمساواة بين البشر.

وتنقضي الوثنية لتلتئم المدن بفضائل المسيحية فتكتسب جلالاً خاصاً وتقديساً معتبراً، لكونها "تمثل النظام والجمال والأمن الإلهي، على صورة مميزة للخلود السعيد، على شكل مدينة محصنّة ومغلّفة بغلاف من الذهب والأحجار الكريمة، بوصفها الشاهد على تلك الحضارة والوعاء الحامل لتراثها، فكانت "نمطاً حضارياً مميزاً بما تمثّله من علاقات ثقافية ودينية واجتماعية وحكومية"[60]، وأصبحت المدينة دير الربّ؛ وهكذا اندمج الروحي بالمادي وتآلفاً، واكتسبت المدينة بذلك جلالاً وقدسية، وأصبحت جنة أرضية.

ففي كتابه "مدينة الله" بنى القديس **أوغسطينس**[61] تاريخ العالم على أنقاض كفاح بين حُبين: حبُّ الذات حتّى احتقار الله، وهي المدينة الأرضية، وحبُّ الله حتى احتقار الذات، وهي مدينة السماء؛ إحداهما تزهو بذاتها، والأُخرى بالربّ؛ إحداهما تطلب مجدها من البشر، والأُخرى تجد مجدها الأعظم في الله الشاهد على ضميرها؛ إحداهما تشمخ برأسها في مجدها، والأُخرى تقول لإلهها: {إنك مجدي ورافعُ رأسي- مز: 4/3}؛ إحداهما تُخضع لنفسها الأمم فتسود شهوةُ التسلط رؤساءها، وفي الأُخرى يخدم بعضهم بعضاً في المحبة، أمَّا رؤساؤها فبرئاستهم، وأمَّا شعبها فبطاعته؛ أسياد إحديهما يحبُّون قوّتهم الشخصية، والأُخرى تقول لإلهها: {أحبُّك، ياربّ، ياقوتي- مز: 2/18}. واعتقد بأن قايين[62]، مؤسس مدينة العالم، ولد أولاً، وانصرف انصرافاً كلياً للاهتمام بأمجاد العالم وهمومه، أمَّا هابيل فهو أول سكان مدينة لله، وقد ولد ثانياً، وقد خرج من العالم بموت غير عادي على يد قايين الذي خرج من لدن الرب، ليسكن في أرض "البُعد" حيث وضع هناك أساس المدينة المستقلة المنعزلة المتباعدة عن الله، وقد ضرب بنوه في هذه المدينة بسهم وافر من الحضارة. ويؤمن أوغسطينس بأن الإيمان هو ما يمكن أن يبني مدينة الله في العالم، حيث يتقاسم الشعب السلطة لتحقيق العدالة والنعيم، ويؤسس قيام كل مدينة فاضلة على

[59] روبرت مكيفر، **تكوين الدولة**، ترجمة: حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1965. ص: 80.

[60] محمود شريح، **تجربة المدينة في شعر خليل حاوي**، ص: 89.

[61] **أوغسطينس**: Augustine، هو أوريليوس أوغسطينُس، وُلد 354م في مدينة ثاغاست في الجزائر. كان والده وثنيًّا، وكانت والدته مسيحيّة مؤمنة لها تأثير قويّ وواضح في حياة ابنها. درس أوغسطينس علم البيان في جامعة ثاغاست، ثمّ درّسه في جامعة قرطاج، وفي رِوما وميلانو، عاد إلى وطنه في إفريقية حيث سُمّي قسّيسًا، ثمّ أسقفًا على مدينة "هيبو" في العام 395م. وقد حافظ على مركزه هذا حتّى وفاته 430م. عُرف بوافر مواعظه ونتاجه الأدبيّ من رسائل وبحوث فلسفيّة، ونقده اللاّذع للهراطقة، وأيضًا كتاباته حول أساليب التربية المسيحيّة؛ حتّى أنه عُرف بأنّه اللاّهوتيّ الأكثر تأثيرًا في الكنيسة الغربيّة. ومن أهمّ أعماله المعروفة: "مدينة الله" و"الاعترافات" الّتي وصف فيها حياته قبل أن يصير مسيحيًّا، وصار هذا الكتاب الأخير مرجعًا كلاسيكيًّا للرّوحانيّة المسيحيّة.

[62] **قايين**: هو النبي قابيل، شقيق هابيل، وأدرج الأسم كما ورد في الأصل.

التمسك بدين يؤمن فضلاً عن الله، بالعدالة والحرية وحقوق الناس، ويكفر بالفقر والجهل والحرب والإرهاب والإذلال؛ وقد استشهد على مدينته بالكتاب المقدس بما له من سلطة إلهية: {يُحدث عنك بالمفاخر يا مدينة الله- مز:86/3}. والكتاب المقدس يشهد قيام هذه المدينة بالمحبة التي يلهمنا إياها مؤسسها؛ وصور العالم من خلال مدينتين: مدينة السماء، ومدينة الأرض؛ اللتين تظهران في العالم متداخلتين ومختلطتين من حيث الولادة والتقدم، والآخرة التي تنتظرهما.[63]

بالتفكير اللاهوتي نفسه الذي ساد في العصور الوسطى، أُسقطت المدينة الفاضلة على العالم الآخر بالطريقة الصوفية والفلسفية التي نسجها القديس **توما الأكويني**[64] في كتابه "الخلاصة اللاهوتية"[65] الذي كان منهجاً مشتركاً للمدن الفاضلة في عصر النهضة؛ حيث أسس المدينة على أفكار السعادة الإنسانية المعتمدة على المبادئ الأخلاقية كما الرفاهية المادية، من خلال توافر شرطين: أولهما السلوك الفاضل للأفراد، والثاني كفاية الخبرات المادية المستخدمة في السلوك الفاضل؛ وشدد على مفهوم الاكتفاء الذاتي للمدينة مع المناطق الزراعية المحيطة بها، وعدّه من المفاهيم التي تتصف بالشرف والكرامة، وعدَّ الحصول على الصفتين مكافأة العمل بمفهوم المدينة الفاضلة، واهتم بالجوانب التنظيمية للمدينة من خلال إعطاء أنواع من الفخامة المعمارية والعمرانية للمباني الدينية والعامة.[66]

وآل الأمر بعد ذلك إلى ظهور فكرة تفكيك الدين عن السلطة، فيخرج **دانتي**[67] في مدينته الفاضلة على الكنيسة خروجاً صريحاً ناقضاً تقاليدها، وأعلن توليه قيادة عصر التنوير في ملحمته: "الكوميديا"[68] التي أتت على شكل رواية تجري أحداثها في مدن العالم الآخر، للتعبير عن الكمال الإنساني، والمعاناة عند فقدانه، والصراع لتحقيقه والوصول إلى عالم المعرفة الذي يعني الوصول إلى الجنة الأرضية الحقيقية المتشكلة عند فهم الإنسان للقوانين

[63] أوغسطينس، **مدينة الله**، ترجمة: يوحنا الحلو، دار المشرق، سلسلة التراث الروحي، بيروت، لبنان، 2002. ص: 276- 281.

[64] **توما الأكويني**: (1225- 1274) Tommaso d'Aquino قسيس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، وفيلسوف ولاهوتي، مؤثر ضمن تقليد الفلسفة المدرسية .أحد معلمي الكنيسة الثلاثة والثلاثين، ويعرف بالعالم الأنغليكاني والعالم المحيط، عادة ما يُشار إليه باسم توما، والأكويني نسبته إلى محل إقامته في أكوين. كان إحدى الشخصيات المؤثرة في مذهب اللاهوت الطبيعي، وهو أبو المدرسة التوماوية في الفلسفة واللاهوت. تأثيره واسع في الفلسفة الغربية، وكثيرٌ من أفكار الفلسفة الغربية الحديثة، أمَّا ثورة ضد أفكاره أو اتفاقٌ معها، خصوصاً في مسائل الأخلاق والقانون الطبيعي ونظرية السياسة.

[65] توما الأكويني، **الخلاصة اللاهوتية**، ترجمة: بولس عواد، ج 5/1، المطبعة الأدبية بيروت، 1881.

[66] محمود قاسم، **نظرية المعرفة عند ابن رشد و تأويلها لدى توماس الاكويني**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، 2000. ص: 211- 220.

[67] **دانتي**: هو دانتي أليغييري (Dante Alighieri)، (1265- 1321)م، شاعر فيلسوف وسياسي محنك من فلورنسا بإيطاليا. أعظم أعماله: الكوميديا الإلهية الذي يعدُّ البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجه أوروبا في أثناء العصور الوسطى، وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة.جمعية دانتي أليغييري التي تأسست في إيطاليا عام 1889 تواصل الترويج للثقافة واللغة الإيطالية حول العالم باسمه.

[68] **الكوميديا**: عمل أدبي فلسفي ألفه الإيطالي دانتي أليغييري منذ عام 1308 حتى وفاته في عام 1321. تعد الكوميديا الإلهية من أهم وأبرز الملحمات الشعرية في الأدب الإيطالي، ويرى كثيرون بأنها من أفضل الأعمال الأدبية في الأدب على المستوى العالمي. تحتوي الملحمة الشعرية على فلسفة القرون الوسطى، وفق نظرة خيالية بالاستعانة بالعناصر المجازية حول الآخرة بحسب الديانة المسيحية، كما تطورت في الكنيسة الغربية الكاثوليكية الرومانية؛ أضيفت إليه" الإلهية" بعد وفاته، وأطلق على العمل: الكوميديا الإلهية (Divina Commedia). وتؤكد دراسات الأدب المقارن أن دانتي تأثر أيّما تأثير بكتاب رسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

الإلهية كعلم؛ يتطلع فيها إلى بناء مجتمع إنساني مثالي، عالم جديد أساسه العدالة والحرية والصدق والنظام والوحدة، والطهر والصفاء والأمل والحب، وذلك بنص لغوي أدبي وفني يحتوي على أساطير وتواريخ وعلوم ولاهوت وسياسات وطنية وعالمية؛ وتدور الرواية في رحلة خيالية، تبدأ من الغابة المظلمة بالرعب والفزع، المتمثلة بالمادية والطمع البشري؛ إلى إشعاع السيد المسيح عليه السلام المتمثل بالأمل والخلاص؛ تعرض الرواية نماذج الرحلة الأخيرة في مصير الإنسان، لتكون عبرة لمرحلة الحياة الأولى في هذا المصير؛[69] وفقاً لأجزاء القصيدة الثلاثة: الجحيم، المطهّر، والفردوس، نظم دانتي مدينته في مناطق ثلاث توزع فيها الناس حسب نتائج تصرفاتها في الحياة.[70]

وبظهور صراع المصالح، يعلق **مكيافيللي**[71] تطور المجتمع على أسباب طبيعية، فبرأيه أنَّ القوى المحركة للتاريخ هي: "المصلحة المادية" و"السلطة"، فعندما لاحظ احتدام صراع المصالح بين جماهير الشعب والطبقات الحاكمة، طالب بإيجاد مدينة خالية من الصراعات الإقطاعية القاتلة، تكون قادرة على قمع الاضطرابات الشعبية؛ وكان يعتقد بإمكانية استخدام الوسائل كلّها في الصراع السياسي، فهو القائل "الغاية تبرر الوسيلة"، عندما درس القسوة والوحشية في صراع الحكام على السلطة.[72] وكان من أوائل من أسسوا الفضيلة على الجانب الإنساني، فاستنبطوا القوانين من العقل والخبرة وليس من اللاهوت[73]. ففي الوقت الذي تضاءل فيه سلطان الكنيسة والدين، ونتيجة لظهور المقاطعات المستقلة مع نمو السلطة المَدَنِيَّة وازدهارها في إيطاليا، ومن خلال معايشته لأحداث فلورنسا ومشاركته في الصراعات على الحكم، توصل إلى أنَّ أساساً الدولة هما: القوة والحيلة، وكان يؤمن أن فن السياسة يتوقف على إدراك دوافع المصلحة الذاتية كما يرويها التاريخ وتكشف عنها التجربة، وربط التغيّر في آراء الناس بتغيّر مصالحهم. وفي كتابه "الأمير" وضع خلاصة موجزة ومركّزة لتجاربه السياسية وتفكيره العميق في نظم الحكم، ومع النقد الموجه للكتاب، إلا أنه لا يتضمن "وسطاً" أو "بين بين"، بل احتوى على الأبيض ونقيضه الأسود، مما جعل الكتاب مرجعاً للملوك والأمراء لأغلب الأمم[74]؛ ويعدُّ مكيافيللي أول من عالج السياسة العملية وأحل دراسة الوقائع وتحليلها محل مناقشة النصوص، كما أنه كان أول من فصل بين السياسة والأخلاق حيث جعل من السياسة فناً قائماً بذاته يستند إلى الملاحظة والتاريخ، فهو يرى في الفن والخداع والكذب

---

[69] دانتي ألغييري، **الكوميديا الإلهية**، ترجمة: كاظم جهاد، سلسلة التراث العالمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، منشورات اليونسكو، بيروت، لبنان، 2002. المقدمة.

[70] ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، بيروت، دار الجيل، 1408هـ / 1988م، ج6، الباب التاسع والثلاثون ، ص: 157. بتصرف.

[71] **مكيافيللي**: نيكولو دي برناردو دي مكيافيللي Niccolò di Bernardo dei Machiavelli، ولد وتوفي في فلورنسا (1469-1527)م، مفكر وفيلسوف سياسي إيطالي إبان عصر النهضة. مؤسس التنظير السياسي الواقعي، والذي أصبح فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي. أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب "الأمير"، الذي هدف منه أن يكون كتيب تعليمات للحكام، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ماهو مفيد فهو ضروري الذي كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية.

[72] مكيافيللي، **الأمير**، ترجمة: أكرم مؤمن، دار ابن سينا، القاهرة، مصر، 2004. ص:21- 23.

[73] **علم اللاهوت**: مصطلح مؤلف من كلمتين يونانيتين هما: "ثيوس – Theos"، بمعنى: "الله"، و"لوجوس - Logos"، بمعنى: "علم". ومن ثم عُرف بـ"الثيولوجيا – علم اللاهوت"، وهو في المفهوم الضيق المحدود: "التعليم عن الله". أمَّا في مفهومه الأوسع والأكثر شيوعاً فيضم المصطلح "الثيولوجيا" داخله كل العقائد المسيحية التي تعالج العلاقات بين الله والكون.

[74] أختار موسوليني كتاب "الأمير" موضوعاً لأطروحته فضلاً عن إلى عدد من الملوك والأباطرة كفريدريك وبسمارك وكريستينا وكل من ينشد السلطة.

وحتى في الوحشية وسائل قد تكون مجدية ينبغي الالتجاء إليها عندما تقتضي الحالة السياسية ذلك، مع أنه كان يراها رذائل من حيث المبدأ؛ والدراسة الواعية لكتابه تبيّن أنه كان ينظر إلى تغيير الواقع المتردي للمدينة جذرياً، بهدف التحرر من كل سيطرة عليها، ولذلك فقد طالب بجيش قوي وإدارة أوليغاركية[75] حازمة للتخلص من رواسب المجتمع، ولو كان ذلك قائماً على انعدام الأخلاق في الظاهر والوسائل، مكتفياً بالحصول على المدينة الفاضلة ولوكان بالخداع والكذب.[76] في المقابل ركز في مدينته على توافر الفضائل جميعها في الأمير وأن يكون مثلاً أعلى في التدين والتواضع والكرم؛ يُعامل الشعب على طبيعته المتقلبة الميول، وأشار إلى أنه "من السهل أن نقنعه بقبول شيء ما، ولكن من الصعب أن نحمله على المحافظة على هذا الاقتناع؛ ولذلك على الإنسان أن يحسن التدبير في الأمور حتى يستطيع إرغام الناس على الإقناع حينما يتحولون عنه"[77].

ويستمر طرح فلسفة المدينة الفاضلة شرقاً وغرباً، لكونها رسالة أخلاقية ضرورية لاستمرار الحياة، تظهر كحلم وأمان في مفاصل التحول بتاريخ المجتمعات، ويمكن لحظ عدد من الأفكار المجددة للمدينة الفاضلة في مدونات عصر النهضة التي تسجل تصور الفلاسفة عن مدنهم بشكل متلازم مع الفضيلة من خلال أعمال مهمة، أُسقط فيها التفكير اللاهوتي على شكل روايات خيالية تتضمن في ثناياها آراء وتصورات عن مشاريع متكاملة لمجتمعات مثالية فاضلة تقوم على التنظيم الاجتماعي في إطار مراسيم دينية حاسمة كما في "مدينة الشمس" لكامبانيلا[78]، أو في "مدينة المسيحيين" لفالنتين أندريا[79] و"دير تيليم" لفرانسوا رابليه[80]؛ فضلاً عن ظهور بوادر تأسيس حركة الإصلاح الديني والاقتصادي كما في اليوتوبيا"[81] لتوماس مور[82].

[75] **أوليغاركية**: أو أولغارشية، وهي: النظام المعتمد على النخبة المتحكمة، ديمقراطية النخبة.

[76] مكيافيللي، **الأمير**، ص:36- 42.

[77] مكيافيللي، **الأمير**. ص:51- 56.

[78] **توماس كامبانيلا**: Thomas Campanella (1568– 1639) مفكر إيطالي انتسب إلى النظام الدومينيكاني. بدأ حياته كاتباً ومؤلفاً، ولكن سرعان ما اصطدم بمحاكمات انتهت بالحبس بسبب أفكاره حول مثاليته الدينية وبسبب دفاعه عن فكرة الجمهورية الثيوقراطية وما تضمنه ذلك من مهاجمة للكنيسة؛ ساعده سفير فرنسا على أن يغادر الأراضي الإيطالية حيث قضى بقية حياته في باريس تحت حماية ملك فرنسا لويس السادس عشر. ترك مجموعة ضخمة من المؤلفات الفلسفية والسياسية تصل إلى نحو ثلاثين كتاباً أهمها مدينة الشمس.

[79] **فالنتين أندريا**: John Valentin Andrea (1586-1654)، باحث وعالم إنساني ألماني خاض غمار عصر النهضة، كان واسع الاطلاع على فكر عصره بسبب شمول تعليمه وكثرة رحلاته، نشر عدداً من المؤلفات التربوية، واتجه نحو الإصلاح الاجتماعي، أسس نظاماً اجتماعياً واقعياً على غرار مدينته الفاضلة.

[80] **فرانسوا رابليه**: François Rabelais (1490-1553) من الرهبان الفرنْسيسكان، تلقى إجازة في الطب من جامعة مُونْبِلْييه، ومارس الطب وقام بتدريسه، نشر كتاب بانْتَاجْرُوويل وهو استمرار لعمل شعبي شهير، صدر دون اسم مؤلّف بعنوان قصة العملاق جارْجا نتُووا، أضاف فيه كثيراً من المواد التي تعكس مستوى فكريًا رفيعًا، وأظهر مواهب فذة، بوصفه كاتبًا ساخرًا ومؤلفًا.

[81] **اليوتوبيا**: تتكون من كلمة: أوتوبيا، في نطقها اليوناني، واشتقاقها من الكلمتين اليونانيتين OU بمعنى: لا، TOPOS بمعنى: مكان، وتعني الكلمة في مجموعها: ليس في مكان، ولكنه أسقط حرف (O) وكتب الكلمة باللاتينية لتصبح UTOPIA؛ صاغها توماس مور، ووضعها عنونا لكتاب له، هو أشهر يوتوبيا في العصر الحديث.

[82] **توماس مور**: Thomas More (1478-1535) الإنكليزي المولد، قائد سياسي ومؤلف وعالم، ومحام ناجح، تلقى تعليمه في مدرسة القديس أنتوني. عين نائب عمدة لمدينة لندن، ألف كتباً عديدة أهمها اليوتوبيا، أصبح سكرتير ومستشار الملك هنري الثامن، انتخب كناطق باسم مجلس العموم، أصبح وزيراً للعدل، ولكنه استقال من منصبه حينما لم يقبل طلاق الملك هنري الثامن، فحبس وقطع رأسه.

في الجانب الآخر، وبعد تأسيس المدينة الإسلامية النموذجية الناضجة من تلاقي الحضارات في الفتح الإسلامي، ظهرت عدة أفكار حول المدينة الفاضلة تأسيساً على الفلسفة اليونانية؛ فمن خلال المدرسة الإنسانية ذات الأبعاد العاطفية والمنزع الأخلاقي، وضع **الجاحظ**[83] الكاتب والمرشد، آراءً قيّمة لتأسيس مدينته على ثوابت متينة، وبدأ برسم لوحة لمجتمع المدينة تتصدى لمشكلاتها الاجتماعية/الاقتصادية/ الإدارية، بأسلوب جمالي بياني يفصح عن جوانب القبح الظاهري والجوهري؛ يرى فيها أن الفرد في المدينة كائناً سياسياً لا يمكن فصله عن مجتمعه، عليه أن يتحلى بالحرية والانفتاح وتبادل الرأي، على أن الفرد يمثل العالم الأصغر الذي يسهم في بناء العالم الأكبر: المدينة، من وجهة نظر تحمل المسؤولية؛ ووضع السلطة بالرأس الذي يوجّه سائر الأعضاء نحو الخير المشترك، ويكبح شططهم، وعدَّ الخليفة عاهلاً زمنياً ورئيساً دينياً؛ واستخدم الدين نظاماً أخلاقياً ينمّي الفضائل في مختلف طبقات الشعب؛ وقرن قيام المدينة المتحررة بتوافر العقل الصقيل والحكمة على أنقاض ثقل العادات والتقاليد والخرافات والحماقات التي صنفها بمصاف السخافة والجهل، وشبّه المدينة بالكائن الحي الذي ينمو باطراد، ودرس بتفصيل أنواع تأثير البيئات المختلفة في السلوك الإنساني؛ وأعلن في خطابه أن فوارق المدن تتبع الإمكانات والمواهب والأخلاق والبيئة التي يعيشها السكان، وحثّ الأفراد أن يشغلوا مكاناً مرموقاً بمدينتهم لا بدَّ أنْ يصلوا بها إليه. وحذر من تدهور مدينته بقبول عشر صفات قبيحة[84]: الضيق في الملوك، والغدر في ذوي الأحساب، والخديعة في العلماء، والكذب في القضاء، والغضب في ذوي الألباب، والسفاهة في الكهول، والمرض في الأطباء، والاستهزاء في أهل البؤس، والفخر في أهل الفاقة، والشح في الأغنياء.

تأثر **الفارابي**[85] بمنهج مدينة أفلاطون، وربط الجمال بالسعادة المتوافرة عن الأعمال الفاضلة التي يقصد الأفراد باتباعها بلوغ الخير، لأن الاجتماع الفاضل هو ذلك الاجتماع الذي يتعاون فيه الأفراد على نيل السعادة الحقيقية[86]، كتعاون أعضاء البدن التام الصحيح وتكاملها، لتتم الحياة وتُحفظ، وطرح مدينته الفاضلة من خلال حكم مركزي قوي، يتولّى إدارتها رئيس أو ملك يكون أكمل إنسان، هدفه خلق مجتمع فاضل تتحقق فيه السعادة، بوصفها الهدف المنشود لماهية المدينة، معتمداً في تحقيق ذلك على تنفيذ القوانين بصرامة مطلقة. وعدَّ أنَّ المدينة الفاضلة، فاضلة بآراء أهلها وحسن نيتهم مهما كانت تجريدية؛ يضاف إليها الأفعال العملية المحققة والمجسّدة

---

[83] **الجاحظ**: هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري (767ـ869)م، أديب عربي من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها، عمّر نحو تسعين عاماً، وترك كتباً كثيرة يصعب حصرها، في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة وغيرها.

[84] عبد السلام المسدى، **قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون**، سلسلة دراسات نقدية، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993. ص: 109.

[85] **الفارابي**: هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان، ولد عام 260هـ 874/م في فاراب بكازاخستان، وتوفي عام 339 هـ 950/م، فيلسوف أتقن علوم الحكمة، وبرع في العلوم الرياضية، زكي النفس، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكانت له قوة في صناعة الطب وعلم بالأمور الكلية منها، أقام ببغداد مدة ثم انتقل إلى سورية وتجول بين البلدان وعاد إلى مدينة دمشق واستقر بها حتى وفاته؛ تأثر به كل من ابن سينا وابن رشد. أهم المراجع:

- الفارابي، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، دار المشرق ش م م، ط5، بيروت، لبنان، 1986. ص: 84.
- مصطفي سيد احمد صقر، **نظرية الدولة عند الفارابي دراسة تحليلية تأصيلية لفلسفة الفارابي السياسية**، مكتبة الجلاء الجديدة، المنصورة، مصر، 1989.

[86] الفارابي، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، ص 118.

لتلك الآراء على أرض الواقع، فلا سعادة لأهل المدينة إلا بتعاونهم الجاد على بلوغهم سعادتهم بالفكرة الموحّدة أولاً، وبالعمل ثانياً، لأن الفكرة مهما كانت ميتافيزيقية أو تجريدية وعلى "رغم أنها تقع ضمن الفروع النظرية من الفلسفة، فلها علاقة مباشرة بحياة الإنسان المَدَنِيَّة وسعادته.. فسعادة الإنسان القصوى وكماله لا يتوقفان على أفعاله فحسب، بل على آرائه أيضا"[87]؛ ونصّب الفارابي على كل شيء فضيل رئيساً، فكان الله للوجود، والحاكم للمدينة، والقلب للإنسان، ووسم حامل الفضيلة بخصال سامية تفيض بالجمال والكمال، والحكمة، والعدل، والاعتدال؛ ورتّب مادون ذلك بالمدينة الجاهلة، والفاسقة، والمبدلة، والضالة.

فَهِم **إخــوان الصفا**[88] العالم وكائناته من خلال الإنسان وطبائعه، وجعلوا من الإنسان عالماً صغيراً، وجعلوا من العالم الكبير إنساناً صغيراً يتوافق مع الكبير في جزئياته وفرعياته، ورأوا العالم من خلال الإنسان، وفهموا المدينة من خلاله، ووعوا الإنسان من خلال المدينة، فجسّدوا الإنسان مخلوقاً على مثال المدينة، والمدينة مُصمّمة على مثال معمار الإنسان، "كحكم مدينة حولها أسوار، وفي داخلها محال وخانات ونواح، فيها شوارع وطرقات وأسواق، خلالها منازل ودور، فيها بيوت وخزائن، فيها أموال وأمتعة وأثاث وآلات وحوائج، يملكها كلها ملك واحد، له في تلك المدينة جيوش ورعية وغلمان وحاشية وخدم وأتباع، وحكمه جارٍ في رؤساء جنده وأشراف مدينته وتنَّاء بلده، وحكم أولئك الرؤساء والأشراف والتنَّاء جارٍ في أتباعهم، وحكم أتباعهم فيمن دونهم إلى آخره. وإن ذلك الملك يسوس تلك المدينة وأهلها على أحسنها من مراعاة أمورهم واحداً واحداً، صغيرهم وكبيرهم، أولهم وآخرهم، لا يبخل بواحد منها".[89] وقد خصَّص إخوان الصفاء فصلاً من رسالة (في تركيب الجسد) لمجاز الإنسان/المدينة؛ وأوضحوا فيه "أن فضيلة المدينة تأتي من جمال ورقي تفكير سكانها، فالمدينة حين تفقد تركيبها الحضاري المصاغ على نسبة معمار الإنسان، تفقد إنسانيتها وفضيلتها، ولا تعود مدينة، وتصبح أقل من مدينة فتتوحش"[90].

يؤسس **ابــن سينا**[91] مجتمعه على ميزان متغيّر لتوازن ثنائية الثواب والعقاب، وعلق نسبيته بمستوى كل من المعرفة والإخلاص، وكان لابن سينا تصنيف لطبقات النفوس في المجتمع على الشكل الآتي[92]:

---

[87] فوزي متري نجار، **السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1964. ص15.

[88] **إخوان الصفا وخلان الوفا**: هم جماعة من فلاسفة المسلمين العرب من أهل القرن الثالث الهجري العاشر الميلادي بالبصرة، اتحدوا على أن يوفّقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في ذلك العهد، فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها: "تحف إخوان الصفا". وهنالك كتاب آخر ألفه الحكيم المجريطي القرطبي المتوفى سنة 395هـ، وضعه على نمط تحفة إخوان الصفا وسماه "رسائل إخوان الصفا".

[89] إخوان الصفا، **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**، مج 3، دار صادر، بيروت، لبنان، 2006. ص: 215.

[90] إخوان الصفا، **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**، مج:2، ص: 246.

وانظر: عبد اللطيف محمد العبد، **الإنسان في فكر أخوان الصفا**، مكتبة الانجلو مصرية، مصر، القاهرة، 1997. ص: 217.

[91] **ابن سينا**: هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، عالم مسلم اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في بخارى سنة 370هـ 980م، وتوفي في همدان بإيران سنة 427هـ 1037م. عرف باسم الشيخ الرئيس، وسماه الغربيون بأمير الأطباء وأبو الطب الحديث. وقد ألّف 200 كتاب في موضوعات مختلفة، العديد منها يركّز على الفلسفة والطب. يعدُّ الفكر الفلسفي لابن سينا امتداداً لفكر الفارابي، وقد أخذ عن الفارابي فلسفته الطبيعية وفلسفته الإلهية . وأشهر أعماله كتاب الشفاء وكتاب القانون في الطب.

[92] برهان بن يوسف مهلوبي، **مكانة الخيال في نظرية المعرفة عند ابن سينا**، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2000. ص: 17.

1. النفس الكاملة في العلم والعمل، أي النفس الفاضلة العالمة.
2. النفس الناقصة في العلم والعمل، أي النفس الجاهلة السيئة.
3. النفس الكاملة في العلم والناقصة في العمل، أي النفس العالمة الشريرة.
4. النفس الناقصة في العلم والكاملة في العمل، أي النفس الجاهلة الفاضلة.

ويرى أنَّ المجتمع تحكمه الأخلاق من بوابتين، الأولى: تشمل من يتصف بالوعي العلمي سواء منهم الطيبون والأشرار، والثانية: يدخل فيها من يعتمدون على الإطار الديني، دون العلمي، كمنهج أحادي في الحياة، وضم إليهما من يتصفون بانعدام الإيمان، بغض النظر عن الطيبة والشر والحياد. واعتمد ابن سينا في تحديد الفضيلة على المدركات العقلية، وأهمل الحسية ولم يستبعدها، بل أوجب على الإنسان أن يكون لديه شوق وعشق لعالم المعقولات الأبدي الروحاني البريء من الفساد والتغيير والشر والزمان والحركة، وأوضح أن السعادة الحقيقية لن تكتمل إلا بإصلاح النفس الحسية، أي بالإدراك الحسي في كل نفس ناطقة.[93]

في سياق أساطير المدينة الفاضلة، قدم **أبو العلاء المعري**[94] "رِسَالَة اَلْغُفْرَان"[95] كقصَّة خياليَّة تتضمن رموزاً وإشارات وتلميحات وتصريحَات، تحمل في ثناياها أصداء موقف فلسفي من الدين والدنيا، وضعه صاحبه في قالب أدبي؛ تبدأ القصة بوصف الرِّحلة إلى العالم الآخر وأحداث المحطة الأخيرة في مسيرة الإنسان حتى الدخول إلى الجنة أو النار، وتصنيف سكان الجنَّة والنَّار أصنافاً، وجعلهم مراتب بعضها فوق بعض استناداً إلى محصلة نتاجهم في أعمالهم التي تؤثر في نيل طاعة الله ورضاه على أنه الحاكم المطلق؛ وتتمحور فكرة المدينة الفاضلة عند المعري في مناقشة عدد من القضايا العقائديّة مثل الغفران، والشفاعة، والتوبة، والجزاء، والجحيم، والعدالة الإلهية؛ ويؤسس على التقصِّي عن الغفران لأعمال الناس المسببة في الدخول إلى الجنة من خلال عبارة: "بِمَ يَغْفِر اَللَّه لَك؟"، أو في الدخول إلى النار من خلال: "لِمَ لَمْ يَغْفِر اَللَّه لَك؟"، مُعدياً بذلك سلطة الحاكم بعد أن تزعزعت أهميتها لديه بسبب فساد الأحوال الاجتماعية والسياسية في عصره وبسبب ما لاقاة من معاملة عَسِرة منهم، ويعود ليصنف واقع مجتمعه بين اثنين: "رجل ذكي دون دين، وآخر متدين دون فكر"، بعد أن رفض تدعيم سلطة الخليفة بالدين؛ وحارب في مدينته تنازع المعتقدات وأساطير رجال الدين، ودعا إلى الحرية الفكرية والإبداع وفق عقيدة الفيلسوف الزاهد، المتمكن من المنطق كدليل أخلاقي، لتكون بذلك الفضيلة هي المكافأة الوحيدة لسكان المدينة[96]. استهدف المعري في نشر رسالته النخبة الفكرية

---

[93] برهان بن يوسف مهلوبي، **مكانة الخيال في نظرية المعرفة عند ابن سينا**، ص: 54.

[94] **أَبُو اَلْعَلاء المعري**: هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري (973- 1057)م، شاعر وفيلسوف وأديب عربي من العصر العباسي، ولد وتوفي في معرة النعمان بْن بَشِير اَلْأَنْصَارِيّ الواقعة في الشمال السوري، عرفَتْ أُسْرَته بِالْفَضْلِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَب، كَانَ أَبُوهُ قَاضِي المعرة، وَيَنْتَهِي نَسَبه إِلَى عَرَب اَلْيَمَن. فقد بصره طفلاً إثر إصابته بالجدري؛ لقب برهين المحبسين بعد أن اعتزل الناس لبعض الوقت، له مؤلفات عديدة، اشتهر بآرائه وفلسفته المثيرة للجدل، هاجم عقائد الدين ورفض الادعاء بأن الإسلام يمتلك أي احتكار للحقيقة.

[95] **رسالة الغفران**: أحد أهم كتب العرب، وصف فيه الدار الآخرة بطريقة تمس جوانب الحياة جميعها، له أثر ملحوظ في كل من أتى بعده؛ أظهر فيه عبقرية بالاستطراد، والفلسفة العميقة، والبلاغة المذهلة. يقول بعضهم: إنه ألهم دانتي أليغييري في كتابه "الكوميديا الإلهية".

[96] أَبُو اَلْعَلَاء المعري، **رسالة الغفران**، تحقيق: محمد عزت نصر الله، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، د.ت. ص: 14-29، المقدمة بتصرف.

والفلسفية من خلال صياغة كلامه بقالب غامض فيه حشد كبير من الألفاظ الغريبة، ركز فيه على نقد كثير من القضايا الاجتماعيّة كانتشار مظاهر الترف والمجون، وغلبة ظاهرة الوساطة، وتهالك الناس على الملذّات، والنفاق، والخصام، والطبقية؛ وكثير من القضايا السياسيّة كالجور السّياسي، والتعالي على الرّعية، ولهو رجال الحكم وانصرافهم إلى حياة الملذّات والترف، التزلّف إلى الحكّام[97].

في عهد تسوده المنافسة الشديدة على الحكم، أسس **ابن ظَفَر**[98] مدينته الفاضلة على كيان الحاكم المُطاع، ووضع له السلوانات على شكل قواعد في فن أصول الحكم،[99] وقسم المدينة إلى حاكم وذوي القربى ورعية، وطالب المُطاع أن يفوض أمره إلى الله وأن يحسن التدبير والتصرف، وأن يستخدم الحيلة إلى جانب القوة ما استطاع، حتى يحافظ على نفسه وعلى حكمه[100]، ونصح المُطاع بالرضى والصدق والزهد والصبر على الشدائد التي يمكن أن تصيب جكمه، بالإبقاء على الحد الأدنى من الحقوق للمحكومين، وإلا تمردوا عليه، وفي ذلك يقول[101]: أيدي الرعية تبع لألسنتها، فإذا قَدِرت أن تقول قَدِرت أن تصول... ترك نكيد الصغائر مدعاة إلى الكبائر.. عليك بالصبر وكف الأذى وبسط العدل والإحسان وتأمين السبل وإجارة المستجير وتأليف المستوحشين والأخذ بالفضل والعفو؛ ووصف ابن ظَفَر ركائز الحكم وفضيلة ذات الملك بخمس خصال: رحمة تشمل رعيته، ويقظة تحوطهم، وصولة تذب عنهم، ولبابة يكيد بها الأعداء، وحزامة تنتهز الفرص.[102]

بنظرة صوفية، ومن خلال العقائد الأساسية للحكمة الإلهية الإشراقية، يضع **السُّهْرَوَرْدي** [103] رسائل قصصية رمزية تروي قصة تجربة روحية يميط اللثام فيها عن كل وجه باطني للحياة الروحية؛ ففي رسالة "آوازِ بَرِ جبرائيل" يأتي الحكيم من مدينة "المثال" المبنية في مكان يعلو على أبعاد الحيّز الثلاثة؛ تلك المدينة التي تُحكم بقانون المعاني الباطنية القائمة على الرمز العددي للحروف والكلمات، الإنسان فيها كلمة من الله، وتخيّل أن الإنسان يعيش في أحد ترنيمي جناحي جبريل الملَك المقرّب، أمَّا في المغرب حيث عالم الظلال الذي يهيمن على السماوات والأرض، أو المشرق حيث عالم الأنوار الملائكية، وجعل من التصوف مسلكاً لدرب المدينة الفاضلة؛ ويرى

---

[97] أَبُو اَلْعَلَاء المعري، **رسالة الغفران ونصّ رسالة ابن القارح**، تحقيق: بنت الشاطئ، سلسلة ذخائر العرب، ط9، دار المعارف، القاهرة، 1977. ص: 21.

[98] **ابن ظفَر**: حجة الإسلام برهان الدين، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن ظَفَر الصقلي، ولد بصقلية سنة 1102م، وتنقل بين مصر وتونس وصقلية، ورحل إلى حلب وتوفى بحماة سنة 1169م. مفسر ولغوي وأديب وشاعر، ترك كنوزاً عُرفت قيمتها بعد وفاته بلغت أكثر من ثلاثين مؤلفاً؛ عاش فقيراً ومات فقيراً.

[99] كتاب في نصح الملوك والأمراء، معنون بـ"**سلوان المطاع في عدوان الأتباع**"، ومعروف أيضاً باسم"**السلوانات في مسامرة الخلفاء والسادات**"، وهو عبارة عن جملة نصائح وقواعد (سلوانات) للأمير (المُطاع)، ألفه ابن ظفر سنة 1150م في شكل رسومات مصحوبة بتعليقات ونصائح، مختصرة، توسع بها سنة 1159 وأهداها لقائد صقلية أبي عبد الله القرشي. يقول بعضهم: إن "مُطاع" ابن ظَفَر ألهم ميكافيللي "أميره" (1527م).

[100] عادل فتحي ثابت، **فن أصول الحكم عند ابن ظفر العربي الصقلي السابق على ميكافللي الإيطالي**، دار الجامعة الجديدة، الاسكندرية، مصر، 1988. ص: 15.

[101] ابن ظَفَر، **سلوان المُطاع في عدوان الأتباع**، تحقيق: أحمد بن عبد المجيد، دار الثقافة، القاهرة، مصر، 1978. ص: 96.

[102] ابن ظَفَر، **سلوان المُطاع في عدوان الأتباع**، ص: 55.

[103] **شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي**: هو يحيى بن حَبَش بن أَمِيرَك، أبو الفتوح، شهاب الدين، (1153- 1191)م، فيلسوف إسلامي من كبار مفكري الفلسفة الإشراقية، ذهب إلى أن "الله نور الأنوار"، تنقل بين المدن العربية الإسلامية، حاربه علماء عصره، واتهموه بالكفر، سجن وتوفى في سجنه.

السهروردي أن الإشراقي الحقيقي هو الذي يتقن الحكمة البحثية، وينفذ في الوقت نفسه إلى أسرار الحكمة الذوقية، وأن الفكر الإنساني غير قادر وحده على امتلاك المعرفة التامة، ولا بدَّ أن يستعين بالتجربة الداخلية والذوق الباطني، كما أن الاختبار الروحي لا يزدهر ويثمر إلا إذا تأسس على العلم والفلسفة، الأمر الذي جعله موسوعي النزعة جمع بين حكمة الفرس واليونان وكهنة مصر وبراهمة الهند، وآخى بين أفلاطون وزردشت وبين فيثاغورس وهرمس[104].

احتلت "المدينة الفاضلة" موقعاً أساسياً في معالجات **ابن رشد**[105]، وعَدَّ انّ الهدف منها هو تمكين أهلها من تحقيق الكمالات الإنسانية التي شدّد عليها. كما عدَّ السياسة في مفهومها الحقيقي تقوم على خدمة الشعب؛ وفي كتابه "التدبير السياسي" تحدث ابن رشد عن خمس مدن هي: المدينة الفاضلة، المدينة الكرامية، المدينة الشهوانية، المدينة الجماعية، مدينة وحدانية التسلط؛ واعتمد في رؤيته على المدينة الفاضلة القائمة على السياسة الفاضلة، وافترض توافر الفضيلة فيمن اجتمعت فيه خمسة شروط: الحكمة والتعقل التام، جودة الإقناع، وجودة التخييل، والقدرة على الجهاد، وأن لا يكون في بدنه شيء يعوقه عن مزاولة الجهاد، ويجعل ابن رشد من الضرورة أن يتولى قيادة هذه المدينة فيلسوف. وانتصر ابن رشد للجمال ولكل ما هو جميل في تربية الإنسان؛ وعدَّ أن كل ما يفضي إلى الجمال هو مطلب في التربية الجمالية لناشئة المدن؛ فهو يريد لساكنة المدينة من الناشئة أن يحاصرهم الجمال من كل جانب، فيسمعوا ما هو خير، ويروا ما هو جميل، ويمارسوا بالتفكير والرياضة الجمال نفسه، "حتى ترسخ فيهم الأفعال الجميلة من جميع الوجوه"؛ وبهذا فإن ابن رشد يرى أن الموروث الجمالي والمنتج الفني في المدينة أدوات رئيسية في التربية يتوسل بها إلى حمل النشء على العمل بالفضائل منذ المهد، ونوه إلى أن انحراف الفن وانعدام الجمال هو بداية الانحراف في المدينة، وربط الابتعاد عن الفن الجميل بافتقاد الفضيلة، واعتمد في ذلك على ظاهر الأشياء الجميلة وباطنها مؤكداً ضرورة الابتعاد عن البدع لأنها تسبب الضرر بسهولة في المدينة؛ وأقر بتعميم ربط فساد الفن بفساد الشرائع والنواميس، مشيراً بذلك إلى تركيبة مدينة خالية من الأخلاق، تعتمد في تسيير أمورها على القضاء الذي تخلو منه مدينته الفاضلة[106].

بمسلك صوفي، استخدم **ابن عربي**[107] في بناء مدينته الفاضلة الرمزية وفق مفهوم "التأويل": أي رد الشيء إلى أصله؛ فكان لا يرى في الوجود إلا الله تعالى أفعاله

---

[104] سيد حسين نصر، **ثلاثة حكماء مسلمين**، دار النهار، ط2، بيروت، لبنان، 1986. ص: 105- 107.

[105] **ابن رشد**: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد، ولد في قرطبة (1126- 1198)م، قاض، طبيب، فقيه، فيلسوف، فلكي، فيزيائي .نشأ في أسرة من أكثر الأسر وجاهة في الأندلس؛ يعد ابن رشد من أهم فلاسفة الإسلام. دافع عن الفلسفة وصحح فَهم علماء وفلاسفة سابقين له كابن سينا والفارابي في بعض نظريات أفلاطون وأرسطو؛ تعرض ابن رشد في آخر حياته لمحنة واتهمه علماء الأندلس والمعارضون له بالكفر والإلحاد، ثم ابعده أبو يعقوب يوسف الى مراكش وتوفي فيها (1198)م. من **أهم المراجع:**

- ابن رشد، **فصل المقال ما بين الشريعة والحكمة والاتصال**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1997.
- ابن رشد، **الضروري في السياسة (مختصر كتاب السياسة لافلاطون)**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1998.
- الجابري محمد عابد، **ابن رشد، سيرة وفكر**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، 1998.
- فخري ماجد، **دراسات جديدة في الفكر العربيّ**، دار النهار، بيروت، 2008.

[106] محمد أمان بن علي الجامي، **العقل والنقل عند ابن رشد**، منشورات كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية. 2006. ص: 19- 22.

[107] **ابن عربي**: هو محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (1165-1240)، أحد أشهر المتصوفين وأحد علمائها، لقب "بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر"، ولد في مرسيه في الأندلس، وتوفى في دمشق، ودفن في سفح جبل قاسيون، له مؤلفات عديدة، أهمها: "الفتوحات المكية"، ترجم معظمها إلى اللغات الأجنبية.

وصفاته، ويعتقد بالخروج عن الإيمان لكل من رأى معه غيره؛ ويذهب إلى الأصل في أن يشرب من النبع، لا من المجرى الذي يمر على ما يغيّره؛ وفي هذا التشبيه يدعو إلى نبع الحياة، فمن شرب منها لم يمت، ولكنه ينتقل من حياة إلى حياة؛ ويشبّه مدينته بِمُلكٍ في قصر، بلاده بعيدة، وحراسه أشداء، وأسواره عالية حصينة؛ فحال الناس كَسْبِي في السعي للوصول إلى قمته بعبادتهم، وفي الطريق لذلك منهم من يلقي الرحال على الأبواب، ومنهم من يدخل المملكة إلى مسافة قدر همّته في السير وتحمّل السياط، ويوزعون أنفسهم في طبقات، والقليل منهم الصادقون بمحبتهم يصلون إلى طبقة النعيم المقيم، ويتولون ما بين قطب وإمامين وأبدال ونقباء، ومديرين، ونجباء، وتبقى العامة خارج القصر، والخاصة داخله مصنفة حسب مسافة بعدهم عن القمة.[108]

قدّم **ابن خلدون**[109] حول المدن أفكاراً ناضجة استوحى معظمها من البيئة التي عاش فيها، حيث عدّها كمكان للسكن والحماية وقيام النشاط الحضري وفق علاقات اقتصادية تنموية، مشدداً على توافر شروط بيئية مناسبة، ويرى أن فضائل المدن تأتي من رقي التفاعل الإنساني في المكان والإدارة الرشيدة، استنتج وجودها من دراسة تاريخ العلاقة بين الناس والعمران، مؤسساً بذلك ما يسمى بعلم الاجتماع الحضري؛ واعتمد على أن خلاصة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية؛ تفسّر بالعمران، فأشكال العمران هي المعبّر الأهم عن حجم الرقي الفكري للمجتمعات؛ ودعا إلى قيام المدينة استناداً إلى التكامل في تلبية الحاجيات والكماليات؛ وأقرَّ بقيام المدينة من خلال توافر حاكم قوي يعتمد في تسيير إدارته على نظم عصبية، تتبدل مرحلياً إلى قوانين تحولية وفق احتياجات التطور الحاصل، وحذر من تدهورها عند انتشار مفاهيم الدعة والفساد والاعتماد على أمجاد السلف.[110]

تلقى القرن الثامن عشر دفعة قوية من الأفكار الفلسفية الجديدة، نتيجة تأسيس الدول القومية، واكتشاف العالم الجديد؛ فحمل تنويراً ووفّر قدراً كبيراً من الحريات الشخصية، مؤذناً بولادة المدن الفاضلة التي تحكمها القوانين الوضعية بعيداً عما هو إلهي وديني، وباتت الفضيلة تنتشر في مصطلحات الطبيعة والمساواة.

ويعدُّ **مورللي**[111] أهم من أسس على النزعة العقلية لتكوين نظريته عن نظام اجتماعي متوافق مع قوانين الطبيعة، ومتعارض مع النظام الاجتماعي اللاعقلي في عصره؛ ويتمثّل النظام العقلي عنده في تجمّع اقتصادي مركزي توجهه خطة اقتصادية واحدة تنظم إنتاج السلع وتوزيعها، وقد صاغ مورللي ثلاثة قوانين أساسية اعتقد أنها تستجيب

---

[108] محيي الدين بن عربي، **زبدة الفتوحات المكية**، ج1، اختصار: صلاح الدين التجاني، 2/1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2006. ص: 42-46.

[109] **ابن خلدون**: هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي، مؤرخ وفيلسوف اجتماعي عربي ينتهي نسبة إلي وائل بن حجر من عرب اليمن، ولد بتونس 732هـ/ 1332م؛ ونشأ في اشبيلية، ودرس على مشاهير علماء عصره القرآن وعلومه والتفسير والحديث والفقه والأصول، كما درس علم المنطق والفلسفة والرياضيات؛ توفي في مصر سنة 808هـ الموافق 1406م. صاحب كتاب (العِبَرِ وديوانَ المبتدَأ والخبرِ في أيامِ العربِ والعجمِ والبربرِ ومن عاصرهُمْ من ذوي السُّلطان الأكبرِ).

[110] يسار عابدين وعماد المصري، **الفكر التنموي في مقدمة ابن خلدون دراسة للاتجاهات النظرية المفسرة للتنمية الحضرية ولدراسة مؤشرتطورالتنمية مع الزمن**، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، مج 25-ع 1، دمشق، سورية، 2009. ص: 115- 118.

[111] **مورللي**: Morelly مفكر فرنسي يوتوبي من القرن الثامن عشر (ولد 1717- ولم يعرف تاريخ وفاته)، نشر كتابه الأساسي: "قانون الطبيعة" في العام 1755م، بحث في الأسس التي يقوم عليها المجتمع الذي تسوده الملكية الجماعية. وقد كان لمورللي تأثير كبير في عدد من الاشتراكيين اليوتوبيين في القرنين 18، 19 مثل: بابيف وأتباعه وكابيه وبلانكي وغيرهم.

للطبيعة والعقل معاً هي: إلغاء الملكية الخاصة، وحق الوجود، وحق العمل، وإلزام المواطنين جميعهم بالعمل؛ ووضع في كتابه "قانون الطبيعة" تفاصيل كثيرة عن دستور مجتمع مثالي قائم على قوانين الطبيعة والمساواة، اعتبر فيها الأسرة وحدة المجتمع، وأنّ الحكومة دورية بالتعاقب، وفرض العمل بالزراعة، وسنَّ التعليم الإجباري من الخامسة، واعتمد على قوانين صارمة في إدارة الفضيلة وتوجيهها في أخلاق المجتمع.[112]

وتابع **جان جاك روسو**[113] من بعده بالمنهجية نفسها في كتابه "أصل التفاوت بين البشر"[114].

من عالم ميّت، مقرف، ذي وجه مزعج لا يبعث إلا على القلق والشعور باليأس، والإحساس بالغربة والعزلة، وثقل واقع هذه المدينة الكبرى التي تفيض رعباً وقبحاً وعقماً، وتتردى في مهاوي الرذيلة ووحل الخطيئة، وتحاصر الروح بمظاهرها الطاغية التي تعمل باتجاه سيادة المادة وطغيانها، وتلاشي الروح وذبولها وضمورها تدريجياً في ظل المدينة المكبلة بقيود الصناعة والميْكنة والتجارة؛ ينشد **بودلير**[115] قصائده[116]: "حلم باريس" و"الدعوة إلى السفر"، ليصور في المنطقة الغامضة من النفس، ويلقي عليها غلالة شفافة من رقيق الشعر وسحره، محاولاً من خلال ذلك أن يضفي نوعاً من الصوفية والروحانية على مادية عناصر المدينة الكبيرة، وأن يوحّد بين أنوارها الاصطناعية وأنوار السماء الطبيعية، وبين شذا الأزهار ورائحة الغاز؛ مخرجاً بذلك سيناريو مدينة صناعية غريبة لا تنتهي إلا بالامتداد إلى أقاصي أطراف العالم، مدينة غير واقعية لا توجد إلا في عقل هندسي مجرد، مدينة خيالية تبتعد عن الرتابة المسكرة للمعدن والرخام والماء[117]؛ مؤسساً بذلك الفضيلة على النظام في شكل مناقض تماماً لتلك المدينة الدنسة، المقفرة القاهرة، والفوضى والقبح والبؤس والضوضاء والبشاعة، موطن المتناقضات المميتة التي يجب هجرانها.

مُزقت الفضيلة في بداية القرن التاسع عشر، وباتت أشلاؤها تستر رقعاً من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية للمدينة، وفقدت الفضيلة معناها المجرّد عندما تضخّمت قائمة تفسيراتها؛ ومع الثورة الفرنسية والتطور السريع للصناعة، وتبلور النظم الاشتراكية، حاولت قلة من المفكرين الإنسانيين ومحبي البشر أن تخفف من البؤس

---

[112] ماريا لويزا برنيري، **المدينة الفاضلة عبر التاريخ**، ترجمة: عطيات أبو السعود، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 225، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997. ص: 207- 220.

[113] **جان جاك روسو**: Jean-Jacques Rousseau (1712– 1778) فيلسوف سويسري، وُلد في مدينة جنيف بسويسرا، كان أهم كاتب في عصر العقل، في المدة الممتدة من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية، حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

[114] جان جاك روسو، ترجمة وتحقيق: بولس غانم، **أصل التفاوت بين البشر**، اللجنة اللبنانية، مجموعة الروائع الإنسانية، بيروت، لبنان، 1972.

[115] **شارل بودلير**: Charles Baudelaire (1821-1867)، شاعر وناقد فني فرنسي، يعدُّ من أهم شعراء القرن التاسع عشر ومن رموز الحداثة في العالم، كان شعره متقدماً عن شعر زمنه فلم يفهم جيداً إلا بعد وفاته. وكان يرى أن الحياة الباريسية غنية بالموضوعات الشعرية الرائعة التي تفصح عن استيعابه للعديد من تناقضات الحياة اليومية في المدن الكبرى.

[116] يمكن التوسع في قصائد بودلير من المراجع الآتية:

- عمر عبد الماجد، **شارل بودلير شاعر الخطيئة والتمرد**، دار البشير، عمان، الأردن، 1997.
- زينات بيطار، **بودلير ناقداً فنياً**، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1993.
- رواد طربيه، **مختارات من الشعر الفرنسي من بودلير إلى ريفيرا**، دار المسار، بيروت لبنان، 1994.

[117] إدوارد غابيد، **المدينة في شعر زماننا: الإنسان والمدينة في العالم المعاصر**، 13 مقالة في هذه الموضوعات لمحاضرين ومفكرين فرنسيين، تعريب كمال خوري ،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق 1977.ص 216.

المتفاقم للشعب، بل ذهب بعضIL إلى حد المطالبة بالمساواة التي دعا إليها فلاسفة من قبل، وسعوا إلى الفضيلة من خلال الإصلاح، ووضعوا ثقتهم في حاكم عظيم يفهم الروح الجديدة للعصر، ويقتنع بأهمية الفضيلة والحاجة إليها من خلال التجربة الناجحة للمجتمعات؛ وفتحت الثورة الصناعية آفاقاً جديدة، وتصوّر كثيرون أنها قدمت الحل لمشكلات المدينة، وبدا أن زيادة الإنتاج لن تقف عند حد، ولا مانع من أن يعيش أي إنسان كما تعيش النخبة؛ وتوجه تحقيق الفضيلة في القرن التاسع عشر بإشباع الحاجات المادية المتزايدة بصفة مستمرة، لتوفير جوانب من سعادة الترف والرفاهية.

إلا أنَّ عدداً من فلاسفة العصر ذوي الاهتمامات الأخلاقية من أتباع **فرانسيس بيكون**[118]، اعتقدوا بأن الترف سيؤدي حتماً إلى الفساد والانحلال، وأن التقدّم معناه تحسين أحوال الناس العقلية والجسدية والأخلاقية، وأن ذلك لن يتحقّق بالاهتمام الزائد بالسلع المادية، ولا بالانغماس الشديد في المتع واللذات التي تفسد العقل.

أمّا في المعسكر المقابل، فقد اعتمد **فريدريك أنجلز**[119] على تحقيق الفضيلة من خلال بناء سلمي لمجتمع مدينة لا يعترف بالطبقية، ويمتلك وسائل الإنتاج كلّها، ويخضع لمفهوم المساواة التي تحققها إدارة لا تخرج عن إطاره.

ويمكن القول إن الفضيلة في مدن القرن التاسع عشر كانت تنسج من منظور علم الاقتصاد على اعتبار أن المدينة ورشة كبيرة تدار بقوانين الإنتاج، مواطنوها عمالها، حاكمها رأس المال.

ويدخل القرن العشرون محدثاً أنوعاً عديدة من تشعبات الفضيلة، تبدأ بالثورة البلشفية في الشرق، ورأس المال في الغرب، ومدينة العرق الآري في الوسط، وتسعى باقي المدن إلى فضيلة تحققها من خلال الاستقلال عن نماذج الاستعمار؛ ويمرّ القرن العشرون بحربين طاحنتين؛ وتتجه المدينة الفاضلة بعد ذلك إلى التدهور في تفصيلات إدارية وتنظيمية ومهنية تخصصية، لتظهر نماذج المدن على شكلين: مدينة فاضلة برأسماليتها، وأخرى فاضلة باشتراكيتها، وتظهر ملامح المدينة العالمية من خلال الفضيلة التي أطلقتها هيئة الأمم المتحدة على شكل شعارات واتفاقيات وخطط تنمية شاملة ومستدامة ومستمرة، يرافقها مفاهيم كالصحة الجيدة والتغلب على الفقر والحرية الشخصية والمساواة والعيش الكريم؛ ويغلق القرن العشرون بابه على حصاد من التلوث الناتج عن التخلي عن كل مفاهيم الفضيلة ومشتقاتها، ويصبح العالم قرية صغيرة مختلة مشوّهة على رغم زينتها واختراعاتها؛ ويدخلون جميعهم باب الألفية الجديدة إلى مدينة يقودها الذكاء التقني الصنعي، وينتهي الحديث عن المدينة الفاضلة، وتتبدل الأولويات الأخلاقية، وتبدأ مرحلة خيالية متفائلة لمدينة ناصعة، خالية من التلوث البيئي، يُعتمد فيها على الحد الأدنى من استهلاك الطاقة الأحفورية والتوجه نحو الاعتماد على الطاقات المتجددة، واسترداد ما يمكن من مصادر الطبيعة المتهالكة؛ في مقابل خيالين متشائمين ينذران بنهاية المدينة: أحدهما نتيجة حرب مدمرة، والآخر طغيان التلوث وحكم الآلة والأتمتة.

---

[118] **فرانسيس بيكون**: Francis Bacon (1561-1626) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على الملاحظة والتجريب، من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس.

[119] **فريدريك أنجلز**: Frederick Engels (1820-1895)، صديق ماركس وزميله، وضعا سوية الفكر الماركسي، عكف على دراسة المشكلات الفلسفية الأخلاقية في إطار نقد المجتمع الطبقي، والبرجوازي. تأثر بكل من: كانط، هيجل، فويرباخ، ستيرنر، سميث، ريكاردو، روسو، جوته فوريبه؛ له مؤلفات أهمها: حالة الطبقة العاملة في إنكلترا.

الفضيلة والبحث عن المدينة:

بعد إخفاق عدة محاولات تخطيطية كبيرة لتنظيم مدينة دمشق خلال العقود الأخيرة، تصل الأمور اليوم إلى مرحلة متقدمة من مراحل إعداد مخطط تنظيمي لمدينة دمشق 2030، حشدت له الإمكانيات والخبرات والدعم اللازم لإنجازه وتنفيذه؛ وينظر جميعهم إليه على أنه المخرج السليم لنقل المدينة العاصمة إلى المظهر الحضاري الذي يليق بتاريخها، لكن هذه الأمنيات لن تتحقق مالم يتوافر لديهم جميعاً جانب أخلاقي في التعامل مع المدينة، ذلك الجانب الذي كان يرتقي بالمدينة دون أن يكون لها مخطط تنظيمي.

وعلى اعتقاد وجود روابط قوية بين حجم توافر الفضيلة وعدد المشكلات في المدينة؛ تلك المشكلات التي ما كانت فيما لو توافرت الفضيلة؛ فإنّ المُخَطَط التنظيمي لن يعالج الأخلاق التي أفرزت فوضى عارمة نتيجة تحولات في جوانب من مَدَنية المجتمع، وعندما يتم الإجماع على التعامل مع مكونات المدينة الفيزيائية والطبيعية بأسلوب فوضوي، تَثبُت حالة إعلاء القيم المادية في المجتمع وحالة غياب الوازع الأخلاقي، وتدلُّ على انهيار نسق القيم السائد في المجتمع؛ فتكرار قطع شجرة زيتون معمرة أو إزالة بستان أو حتى إهلاك غوطة، وبناء المخالفات ومخالفة أنظمة البناء، وتوضع المناطق العشوائية على مداخل المدن واستمرار انتشارها على الأراضي الزراعية، وإتلاف المرافق العامة، التعدي على أملاك الدولة، وتحريف التراث العمراني، وتشويه جبل قاسيون؛ حالات من تخاطب غير أخلاقي متفق عليه، لطمس هوية المدينة وتشويه مشهدها الذي بدا منقسماً بين المظاهر العشوائية والريفية، ومثاقفة لعمارة شاذة مستوردة، وهطول الاستثمارات العقارية الضخمة على أفضل بقاع المدينة، دليل على استغلال غير أخلاقي لمقوماتها التنظيمية، أمَّا تحويل تراثها المعماري إلى مطاعم ونواد ليلية فهو دليل على استباحة تاريخها. ويتجاهلون جميعاً مفهوم الفضيلة ويتمسكون بإلقاء المسؤولية على عاتق ثغرات تنفيذ القانون، ويطوعون القانون ليحكم بالعاطفة كمؤسسة رعاية اجتماعية/ اقتصادية، متجاهلين محطات المَدَنية التي يجب أن يديرها.

في كل قضية تاريخية لمدينة عظيمة نجد أنها كانت محمية بالأخلاق الفاضلة؛ فالأخلاق تمثل حجر أساس بناء المجتمع الأصيل المتكامل، وتسهم في السيطرة على نوازع الإنسان وتجعل المجتمع متوازناً وثابتاً؛ فمن دونها لا يمكن لأي مجتمع أن ينهض أو يزدهر وأن يأخذ بأسباب الحضارة الحديثة وسبل تطورها، وقَطْعِ أشواطٍ بعيدة فيها؛ والدارس لتاريخ الأمم والشعوب يدرك نتائج تنكرها للأخلاق وللممارسات الفاضلة .[120] والأخلاق بوصفها أحد مكونات الشخصية الإنسانية تتكون من مجموعة مقومات تعد العقيدة من أهم العوامل فيها، ثم القيم العليا أو التقاليد والعادات وغيرها، التي تمثل بواقعها رسالات أخلاقية في إصلاح النفوس والضمائر بما تحتويه من تعاليم تؤكد بها السلوك السوي.[121] وقد عني الفلاسفة بالأخلاق أشد العناية على أنها حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة، وتوجهوا إلى البحث في الخير الأسمى عن طريق الفضيلة لدى الأفراد على أنها تحقق الخير في الدولة.[122]

المدينة الفاضلة أسطورة فلسفية بدأت إيحاءاتها بالظهور مع اختفاء مدينة أطلنتا[123]، أتت فيها الفضيلة- كما سلف-

---

[120] عبدالسلام محمد نجادات، **الأخلاق بين الفلاسفة المسلمين والفلاسفة اليونانيين دراسة مقارنة**، مجلة علوم انسانية، السنة السادسة، العدد 40، جامعة البلقاء التطبيقية-الأردن،2009. ص: 29.

[121] عبدالسلام محمد نجادات، **الأخلاق بين الفلاسفة المسلمين والفلاسفة اليونانيين دراسة مقارنة**. ص: 34.

[122] عبد الرحمن بدوي، **الموسوعة الفلسفية**، ط1. ص: 44.

[123] **أطلنتا**: Atlantis حضارة أسطورية، يعود الحديث عنها إلى وثائق الفراعنة، ومحاورات أفلاطون مع تيماوس حوالي عام 335 ق.م؛

على شكل تطبيقات عملية ارتدت حللاً عديدة في طقوس مصطلح المدينة، يستدل منها على اعتماد قوام المدن نظاماً يتألف من قانون عام يطبق على الجميع، أو سلسلة من القوانين يطبق كل منها على عموم شريحة من شرائح المجتمع، وتنال المدينة فضيلتها في تعميم عملية تطبيق القوانين، وترتقي مكانة فضيلتها باقتراب نتاجها من خصائص مفهومها المتضمنة بالفضيلة كمَلَكة خُلُقِية يكون المرء بحسبها صالحاً يقوم بما يجب عليه بأحسن وجه للوصول إلى الكمال في مجتمعه؛ وعلى هذا فإن مفهوم الفضيلة واحد مهما تشعب مصطلح المدينة.

المدينة الفاضلة ليست أسطورة، ولا بدَّ أن يكون لكل مدينة فضيلتها تستعيد فيها الهدف من الحياة باستمرار؛ أخذ الجزء السالف عنها طابع المنهج الاستعراضي التاريخي في ذكر سعي عددٍ من الفلاسفة للبحث عن مكونات تأسيس المدينة من حيث الأخلاق الفاضلة.

حقيقة، يصعب طرح فكرة المدينة الفاضلة بشكل مدون على شكل مقياس مستنتج من نماذج المدن الفاضلة، سواء عبر مقارنتها أو دمج بعض منها واستبعاد الآخر؛ ويحتاج الموقف إلى أسلوب يخرج منه الكاتب دون المساس بثوابت الفلاسفة والحكماء حول هذا الموضوع، ولهذا يجب أن يُنظر إلى المدينة الفاضلة على أنها تجمع الأقوال السالفة كلها في مدينة واحدة، يمكن قياس الفضيلة فيها من مكونات المدن؛ على اعتبار الفضيلة "هيئة نفسية/ عقلية" تصدر عنها الفضائل، مقياسها الاعتدال[124].

ولهذا وقع الاختيار على وصف مدينة خيالية لها الاسم نفسه: "**دمشق**"، والموقع والمعطيات الجغرافية: بردى وقاسيون والغوطة متطابقة تقريباً، أضف إلى ذلك تشابه الأشياء كلها، باستثناء الزمن فكان عابراً؛ وفي بناء هيكلية المدينة هذه، تم الابتعاد عن التصنيف الطبقي والطائفي، وعدَّ المواطن شخصية نموذجية واحدة مكررة؛ ويقصد بالمواطن كل مقيم أكثر من أربعين يوماً، التزم بالأعراف والثقافة السائدة في المكان دون أن يسيء إليه وإلى سكانه ظاهراً وباطناً.

المدينة الفاضلة المقترحة:

مدينة تحمل فضائل المدن المعروضة جميعها؛ وهي أقدم مدن الأرض قِدماً، وأكبرها سناً، وأرسخها في الحضارة قَدماً، فيها العلم والأدب، والتقى والصلاح، فيها الحب واللهو، وفيها الفنون والجمال؛ مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن، فيها تراكم تراث الحضارات، وإلى أهلها اليوم انتقلت ميزتن كل من سكنها من سالف الدهر، ففي نفوسهم مثل ما في أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضي، طبقات بعضها فوق بعض، فالحضارة تجري في عروقهم مع الدماء، وهم ورثتها وحاملو رايتها، وهي فيهم طبعٌ وسجية؛ جمع الله لها جمال الفتوة وجلال الشيخوخة.[125]

يقال إنها كانت إمبراطورية عظيمة تعرف باسم "أطلنطس" تحتل قارة هائلة خلف أعمدة "هرقل" في مضيق جبل طارق؛ اهتمت هذه الحضارة بعلم الأرقام الذي نشأ عليه فن العمارة المتطور. يذكر أفلاطون أن تلك القارة كانت مقسمة إلى ممالك بها آلاف الولايات الغنية لوافر ثرواتها الطبيعية من أراض خصبة ومعادن نفيسة وأخشاب وماشية، أنشؤوا الجسور والقنوات وشيدوا الأبنية بالذهب والفضة والنحاس والعاج، وأنشؤوا الأرصفة والموانيء التى كانت تعتمد على أسطول من المراكب العظيمة المحملة بالبضائع التجارية، كانت تربطهم القنوات والجسور الضخمة مع البلاد المحيطة، اشتهر شعب أطلنتس بالنبل والكرم وحسن الخلق.

[124] أحمد عبد الرحيم السايح، **الفضيلة والفضائل في الإسلام**. ص:33.

[125] علي الطنطاوي، **دمشق: صور من جمالها، وعبر نضالها**، دار المنار، ط2، جدة، السعودية، 1987. ص: 7.

علي الطنطاوي: شيخ الأدباء، عالم جليل، مربٍ فاضل، لغوي بليغ، كريم السجايا؛ تميز بأسلوبه السهل الممتع، فتقبله العامي والعالم وطالب العلم، ثقافته عالية في كل مجال. ولد في دمشق (1909-

"مدينة قديمة لم ينخفض قَدْرها، ولم ينحطَّ عمرانها مع ما انتابها من تقلبات الزمان، مما يدلّ على عناية صمدانيّة أوجبت لها التفضيل والفضيلة على غيرها من المدائن"[126]؛ فاستمرار حياة مدينة آلاف السنين، لا بدَّ وأن يضع الدارس في صورة واضحة من المكونات الأخلاقية التي تفرضها قدسية هذه المدينة على قاطنيها، وعلى الرغم من التاريخ العنيف الذي عاشته هذه المدينة من حروب ودمار واستباحة، إلا أنها في كل محطة كانت تستحم من "مجرى الذهب"[127] لتطهر الآثام، وترتدي ثوب الفضيلة المعهود من جديد.

يدعوها المستشرقون: "لؤلؤة محاطة بالزمرد الأخضر"؛[128] هي جنة المَشرق، ومطلع نوره المُشرق، وخاتمة البلاد وعروس المدن، تحلت بأزهار الرياحين، وتجلت بحلل سندسية من البساتين، وحَلت في موضع الحسن بالمكان المكين، وتزينت منصتها أحسن تزيين، وتشرفت بأن آوى المسيح وأمه إليها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل، وقد سمت أرضها كثرة الماء، وأحدقت البساتين بها إحداقة الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر، وامتدت بشرقيها غوطتها امتداد البصر، فكل موقع لخطٍّ بجهاتها الأربع نغوته اليانعة قيد النظر، ولله درّ القائل فيها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسَامتها وتُحَاذيها.[129]

يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر، المترفع عن الأرض تَرَفُع البطولة والعبقرية، الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق؛ تعانقها الغوطة، الأم الرؤوم الساهرة أبداً، تصغي إلى مناجاة السواقي الهائمة في مرابع الفتنة، وقهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس؛ تلك الغوطة التي فتنت الملوك والأدباء والعلماء، وأنطقت بالشعر ناساً ما كانوا من قبل شعراء، ما فقدت على طول الأيام فتنتها، ولا شاخت على طول المدى[130]؛ مدينة أشبه بميناء منارته قاسيون ورصيفه الغوطة، يستقبل السفن من بحر الصحراء.

أما سكانها فمن أجناس مختلفة، يصعب على المدقق إلحاق طوائف أهاليها بأجناسهم الأصلية لكثرة ما تقلب على هذه المدينة من الأحوال التاريخية، وهم قوم بالإجمال أخلاقهم حسنة رضية، يوصفون باللطف، أمناء ذوو شهامة وناموس ودعة ومؤانسة، رقيقو الطباع، حسنو المعشر سليمو النية والطوية، كرماء يحبون الغرباء ويميلون إلى السلام والسكينة والتودد، ويرغبون في البسط والانشراح والسرور؛ هذه الخصال نجدها بكل طبقاتهم ومراتبهم متأصلة تأصيلاً، والرجال على ماهم عليه من الشدة،

1999)، درس في مكتب عنبر وفي كلية دار العلوم وكلية الحقوق؛ كثير الأسفار، خلف أعمالاً جليلة، توفي في جدّة ودفن بمكة.

[126] نعمان قساطلي، **الروض الغناء في دمشق الفيحاء**، دار الرائد العربي، ط2 بيروت، لبنان، 1982. ص: 2.

[127] **نهر الذهب**: اسم من أسماء نهر بردى، ورد ذكره في كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء لنعمان قساطلي في الصفحة: 144.

[128] أحمد غسان سبانو، **دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية**، دار الكتاب العربي، سورية، د ت. ص: 151.

[129] أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي، **رحلة ابن جبير**، ط2، مطبعة بريل، ليدن المحروسة، 1907. ص: 260- 261.

و**ابن جبير** هو أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني (1145-1217)م، جغرافي، رحالة، كاتب وشاعر أندلسي، دوَّن مشاهداته وملاحظاته في يوميات عرفت برحلة ابن جبير، وسميت باسم "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار"، تداولها الشرق والغرب، استقر بمصر، وتوفى بالإسكندرية.

[130] علي الطنطاوي، **دمشق: صور من جمالها، وعبر نضالها**، ص:6.

يتصفون بالمروءة والإنسانية، قلما يقومون بشكلٍ مع غيرهم لقناعتهم بأن ذلك حطة في مقامهم، وإذا تحامل عليهم أحد من غير طغمتهم، يحتملونه ويلاطفونه ويتلافون الأمر معه بالتي هي أحسن؛ ويعود سبب تأصل هذه الملكة في الأخلاق إلى كثرة خيرات المدينة وتمتع الأهالي بها، والصفات الأصيلة المنتشرة في المدينة، وحسن الموقع التجاري، وتوافر فرص العمل لكل فرد، وكثرة المنتزهات الترفيهية في المدينة.[131]

وعلى الرغم من تفاوت درجات ثروة سكان المدينة ومعرفتهم، إلا أنه يصعب تمييزه ظاهرياً كما في المدن الكبرى الأخرى، فالناس على السواء متمتعون بلذة العيش لوفرة الخير ورخصه وتنوعه لدرجة تمكّن الفقير من أن ينالها كما الغني في المأكل والملبس والمتاع، ويبدو الحي في المدينة وكأنه دار أسرة واحدة يتشاركون البذل والعمل والعاطفة؛ أمَّا بالنسبة إلى الجمال فقد وزع بينهم توزيعا عادلاً فهو في جميع مراتبهم وطبقاتهم، وهم معتدلو القامات ملتفو الأجسام والطول، حسنو البنية والتركيب، أقوياء وأصحاء، يغلب على عيونهم الشهلة والسواد، والزرقة قليلة، وشعورهم سوداء أو شقراء مسترسلة أو جعداء، وأنوفهم ومباسمهم جميلة، وبالإجمال يحسبون بطبقة عالية الجمال؛ وقد ازداد رونق جمالهم وصقلت أخلاقهم بنظافتهم البالغة في ملبسهم وداخل بيوتهم ومحالهم وطرقاتهم التي تعبّر عن الإيمان بفضيلة المكان.[132]

العربية هي اللغة الرسمية لسكان المدينة، وهي بلهجة لينة رقيقة حسنة لطيفة توافق طباعهم، فيها كثير من الألفاظ العامية والمصطلحات المحلية التي يقبلها الذوق ولا ينفر منها الطبع، وهي قريبة من الفصحى أكثر من غيرها من لهجات المدن.[133]

بعد الإدارة، يتوزع سكان المدينة في خمس طبقات مادية: مستخدمو الحكومة، وأصحاب الأملاك، والتجار، والباعة، أصحاب المهن؛ وأهالي المدينة يحافظون على سلامتها وانتظامها، وهي من جملة المآثر التي تدلّ على تمدنهم وسمو حضارتهم، وهيئتهم الاجتماعية على حالة رضية، والناس تعيش بالمودة والإلفة تقوّم سلوكها بمبادئ السلام والمحبة والتعامل بالحسنى، يرتبطون بوثاق الوداد والسكينة، يحترمون بعضهم بعضاً، ويراعون الأحاسيس ويتجنبون المخاصمات والقلاقل.[134]

أبنيتها ملتصقة بعضها ببعض، لا فسحة بين الدار والأخرى حتى كأن المدينة بناء واحد؛ لها مظهر خارجي بسيط موحد، أمَّا من الداخل فهي دور فسيحة مزخرفة وفي صحنها برك محفوفة بالليمون والنباتات العطرية والأزهار الجميلة؛ أسواقها كثيرة على نوعين: متفرقة، ومجموعة؛ تدعى الأخيرة منها بـــ"المدينة"، وهي أسواق مستقيمة عريضة جميلة مرتبة، لا ترى الشمس في الصيف ولا الأمطار في الشتاء لأنها مسقوفة؛ تتوزع فيها الحمامات المتميزة بالإتقان والنظام والهندسة والخدمة، وتنتشر القهاوي وتتفرق الخانات في أنحاء المدينة؛ وتقسم المدينة إلى قسمين: الأول داخل السور، والثاني خارجه، وتتوزع إدارياً على ثمانية أثمان، كل ثمن يقسم إلى أحياء؛ تتوزع فيها الكنائس والأديرة إلى جانب المساجد والمدارس بانتظام بالغ تتعانق فيه الأديان والطوائف؛ تشرب هذه المدينة من نهر ذي سبعة أفرع، سُطِرَ من الحكمة الإلهية، خطته يد الله على صفحة هذا الكون، يروي الفائض منه تربة خصبة يزرعها السكان ببراعة

[131] عبدالرحمن بك سامي، **القول الحق في بيروت ودمشق**، ص: 58.
[132] عبدالرحمن بك سامي، **القول الحق في بيروت ودمشق**، ص:69.
[133] عبدالرحمن بك سامي، **القول الحق في بيروت ودمشق**، ص:71.
[134] عبدالرحمن بك سامي، **القول الحق في بيروت ودمشق**، ص:75.

وفن، بحيث يغتلّون من الأرض الواحدة أربعاً حسب فصول السنة.[135]

لم تكن شهرة دمشق في علومها ومعارفها وفنونها أقل من شهرتها بجمالها ولطف أهلها وغزارةمياهها وطيبها؛[136] مدينة علم تلألأت بنور المعارف، نالت السبق في مضمار الآداب في عهودها السالفة، أشاد ولاتها المدارس والمكاتب وأنفقوا عليها الأموال الجزيلة، ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، فانصبَّ أهلها على العلم، فأفلحوا ونبغ منهم جمٌّ وافر من الأعلام ممن افتخر بهم المشرق ولا يزال، فسلسلة العلماء الأعلام لم تنقطع بوقت من الأوقات؛ والمدينة مليئة بمدارس يومية للذكور والإناث، تُدرّس فيها العربية بفروعها والتركية والفرنساوية واليونانية والجغرافيا والحساب؛ فضلاً عن مدارس العلوم الدينية واللغة والفقه، وحلقات العلم التي يدرسها العلماء في بيوتهم وفي المساجد، وفيها مدرستان حربيتان.[137]

هي عاصمة الإيالة، ومكان إقامة الوالي، فيها تعقد المجالس وتدار أنحاء الولاية، وفيها ضابطة، ويقيم فيها قناصل الدول؛ واردها يفوق خرجها، وقد عمل مأموروها على حفظ إيرادات الخزينة ومضاعفتها بتيقظ وانتباه وأمانة، واستخدموه بزيادة العمران، وأتبعوه بالإصلاحات اللازمة لزيادة الدخل، على اعتقاد منهم بأن الاستفادة من الثروات التي تتمتع بها المدينة لا يكون إلا باستقامة المأمورين والموظفين والمستثمرين وحفظ النظام وتطبيق القانون، وما أشبه بذلك[138]. يتحلى واليها بكثير من العلم والشجاعة والعدل، حصَّنها وبنى المدارس والمشاهد ونشر العلم، يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف الظلم بنفسه، أوقف غلالاً هائلة للفقراء والأيتام والمساكين.[139] وسعى لتخفيف الضرائب عن الأهالي، فمنع عدة منها، وألقى حجج الديون عن الفلاحين، كما أنه تقرب إلى العلماء.[140]

في تواتر سيرة هذه المدينة توج الناس بالفضيلة، وكان الأصل في السعي نحو الكمال، مع توافر نقاوة في القلب التي تمكن من الانتصار على كل نوازع الشر وإغراءاته، وممارسة الحياة البارّة؛ وعيش حب المدينة، وليس حب العيش فيها؛ وليس مجرد فعل الخير، بل محبة الخير؛ ليست اللذة، بل السعادة والفرح؛ كانت تفضيل مصلحة المدينة على المصلحة الفردية، مقابل رعاية كامل المدينة لكل فرد؛ كانت الفضيلة الحصول على الحقوق وتأدية الواجبات، كان التشريع فيها سيداً يطويهم جميعاً، لا يحتويه أحد؛ كان الانتصار للقانون لا عليه؛ كانت السلطة تكليفاً لا مطلباً، كانت الإدارة خدمة ورحمة، لا مكاسب ومفاسد ومحسوبيات، كانت مسلكاً واحداً، لا أنفاق وجسور؛ كانت المدينة الفاضلة لديهم هرماً ثابتاً متدرجاً برأس ذهبي، أو جسداً تتكامل أعضاؤه وترعاه روح نقية، ويديره رأس مليء بالحكمة، كانت تتغذى أنواع العلم والفن والموسيقا والرياضة، ولم تقت يوماً على موائد "الفلهوة" و"الشطارة".

الخاتمة والنتيجة والتوصية:

على مدى تاريخ المدن تظل الفضيلة حلماً تتطلع إليه في واقعها ومستقبلها، ولا بدَّ من أن نتائج أي استطلاع في

---

[135] نعمان قساطلي، **الروض الغناء في دمشق الفيحاء**، ص:95-116.

[136] أحمد غسان سبانو، **دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية**. ص: 58.

[137] نعمان قساطلي، **الروض الغناء في دمشق الفيحاء**، ص: 118-120.

[138] نعمان قساطلي، **الروض الغناء في دمشق الفيحاء**، بتصرف. ص: 130- 143.

[139] نعمان قساطلي، **الروض الغناء في دمشق الفيحاء**، في الحديث عن الملك العادل نور الدين الشهيد بن زنكي (عماد الدين). ص: 154.

[140] محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي، **المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية**، تحقيق: حكمت اسماعيل، وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 1993. ص: 43.

هذا الموضوع ستكوّن مقدمات قياسية لاستطلاع آخر في زمن لاحق، يرصد فيه حجم ابتعادها عن هذا المعيار؛ فالمدينة وحدة حضارية متكاملة تسوّرها أصول المنطق والعقلانية، مكوناتها تمثل مسرحاً للمثاقفة والمحاورة واستعراض العلوم والفنون التي ارتقت إليها المدينة، ومع أن المدينة تحتاج إلى تخصصات عديدة لدراسة جوانبها وحل مشكلاتها المتصلة بتطوّرها ونموّها، ومع أنّ البحث لم يتعرض للمشكلات العمرانية في دمشق اليوم بأي نوع من تصنيفاتها، لا إهمالاً لشأنها أو لعدم وجودها، ولكن إيماناً بأنها تحديات تخصصية يمكن تجاوزها باختصاص الفضيلة وحده؛ إلا أن البحث ركز على مفهوم الفضيلة ليكون قاعدة أي عمل ينجز في ما اصطلحت عليه مكونات المدينة، ولمَّا كان العمران هو حصيلة مهمة من ممارسة أنواع الفضيلة ومراتبها وطبقاتها، وجب أن تكون عملية مراقبة التنمية العمرانية وضبطها والتحكم بها وفقاً لقوانين ونظم ومعايير وأسس ثابتة مبنية على مبدأ أخلاقي، لضمان الوصول بالإنسان إلى أرقى صور العيش الرغيد والحياة الكريمة وعلى أساس من المساواة والعدالة الاجتماعية، وعلى درجة عالية من الكفاءة في ممارسة مختلف أوجه النشاط العمراني ضمن المجتمع.

والمخطِط الذي يتصدر عملية تطوير المجتمع، من خلال عمله كدارس أو كمدقق لدراسة تطويرية للمدينة، عليه أن يتحلى بروح النقد العلمي البنّاء للوصول إلى أفضل المقترحات؛ فمن أهم جوانب إثبات قيمة عملية التنمية، هو حجم النقد الموجه إليها؛ والنقد، حقيقةً، أسهل من وضع الخطط، والنقد ظاهرة صحيّة تفيد الناقد بالفهم وتنبه المخطط على ثغراته أو تثبت جودة عمله؛ ومن غير الطبيعي ألا تتوافر مساحة لاختلاف الآراء حول الموضوع؛ فما نسعى للحفاظ عليه اليوم، كان مثار جدل أيام إحداثه؛ وظاهرة التمسك بالموجود وتفحص المحدث ظاهرة طبيعية يمكن رصدها من أدبيات التاريخ؛ وعلى هذا يُعتقد بأن البحث سيحقق الهدف من إجرائه من خلال تنشيطه لمفهوم الفضيلة في مصطلح المدينة، فعمران الأمس تراث اليوم، وعمران اليوم تراث الغد؛ والمهم أن نكون مستعدين لتبرير مافعلناه بتراث الأجداد، وأن ما قدمناه كان الأنسب لمستقبل الأبناء، ولم يكن مجرد ملاحقة ساخنة وراء كل جديد، بعيداً عن القيمة التاريخية والثقافية لدمشق.

ويمكن استنتاج أن الفضيلة مفهوم أمضى الفلاسفة عمرهم في الدعوة لتحقيقه في مصطلح المدينة، وعلماء اليوم يكدحون في معالجة مشكلات المدينة الناتجة عن التخلي عن الفضيلة؛ فالتمسك بالفضيلة يخفف من اختلاف وجهات النظر، ويحمل المخرجات صفات الجمال والأصالة والصدق.

وإنَّ الفضيلة ليست مسألة تجريدية يحتكرها الفلاسفة وأصحاب الفكر، بل هي مسألة يومية في متناولهم جميعاً، تؤثر في أخلاق المجتمع وفي الحياة المُعيشة في كل يوم وفي كل عمل منجز؛ وكل برنامج إصلاحي يمكن له استبعاد احتمالات الإخفاق على اعتبارات الأخلاق، وتصورات محسوسة للمشكلات المراد حلها واقعياً لا طوباوياً، في مصلحة المدينة لا دونها، وفق طرح شمولي لقائمة الفضيلة في ظاهرها وباطنها، فأنظمة الإدارة القائمة على أسس هذا الطرح هي اعتقاد كمفتاح الحل لكل مشكلة، من كيفية السير في الشارع إلى تلك الغايات الكبرى التي لاتقف عند حدّ.

وإنَّ المدينة الفاضلة كيان متماسك يدين بالحكمة ويرتوي بقنوات القانون، ويقتات العلم، ويعتنق المساواة، مهنته صناعة الخير، ومظهره يتشبه بالجمال الإلهي؛ ولمّا كانت الفضيلة تؤسس على هذا، فإنَّ التعامل مع دمشق يحتاج إلى أنواع ومستويات من الفضيلة تحقق توازناً ولو بحدوده الدنيا بالنسبة إلى الأفراد والمدينة كلها.

ويقترح توصية إدارة المدينة بالعمل بموجب مكونات الفضيلة التي يجب أن تؤسس عليها، فالفضيلة تُحكم من مكان ما، ولا يمكن أن تُفرض إلا من خلال النماذج التي تتعامل بها الإدارة مع المجتمع، بوصفها النموذج والقانون الذي يتصرف بماضي المدينة، ويحكم حاضرها، ويرسم مستقبلها.

ومن منطلق تحمل مسؤولية توافر الفضيلة في أخلاق المجتمع، وبالذهاب مع فكرة أن الإدارة تتحمل الجزء الأكبر، يمكن تحويل هذه المهمة إلى الأفراد الذين تولوا مسؤولية الإدارة، بوصفهم مجموعة مختارة مرحلياً لتولي مناصب إدارية تمثل حالة زمنية انتقالية، وأن هذه المناصب يمكن توليها مع مجموعة أفراد آخرين من العامة نفسها في مرحلة تالية، فالفضيلة إذاً هي مسؤولية الفرد؛ وتشير صفحات التاريخ إلى صعوبة تفصيل الفضيلة لإدارة قائمة، ولكن حتماً يمكن التأسيس عليها بتربية جيل لاحق يحمل راياتها على ثوابت.

وبطبيعة الحال فإن ماهية الأخلاق المتحدث عنها قد تختلف، وقد لا تختلف بعض الأحيان، من طرح إلى آخر، ولكن البنية العامة هي ذاتها، من حيث التمحور حول مفهوم أخلاقي للفضيلة فيه إكسير كل شيء؛ ولا همّ في اختيار اعتناق نوع من نماذج المدن العالمية الفاضلة، ولكن الفضيلة تبدأ بالعمل بموجبه وفق النموذج الهدف وتحديد ملامح الرؤى المؤسسة لغد المدينة، مع التشديد على خطورة السير باتجاه المستقبل قبل معالجة القاعدة الأخلاقية، والتشديد أكثر في إطباق الفضيلة على الابتكار والمعالجة، لأنَّ الفضيلة منهج بناء مدينة ومعالجتها.

المراجع:

1- ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق: عبدالله الدرويش، 2/1، دار يعقوب، دمشق، سورية، 2004.

2- ابن رشد، **الضروري في السياسة (مختصر كتاب السياسة لافلاطون)**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، 1998.

3- ابن رشد، **فصل المقال ما بين الشريعة والحكمة والاتصال**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، 1997.

4- ابن ظَفَر، **سلوان المُطاع في عدوان الأتباع**، تحقيق: أحمد بن عبد المجيد، دار الثقافة، القاهرة، مصر، 1978.

5- ابن منظور، **لسان العرب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1997.

6- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي، **رحلة ابن جبير**، ط2، مطبعة بريل، ليدن المحروسة، 1907.

7- أَبُو اَلْعَلَاء المعري، **رسالة الغفران**، تحقيق: محمد عزت نصر الله، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، د.ت.

8- أبو العلاء المعري، **رسالة الغفران ونصّ رسالة ابن القارح**، تحقيق: بنت الشاطئ، سلسلة ذخائر العرب، ط9، دار المعارف، القاهرة، مصر،1977.

9- أحمد سليم قلالة، **الفكر السياسي من الشرق للغرب**، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.

10- أحمد عبد الرحيم السايح، **الفضيلة والفضائل في الإسلام**، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر،1997.

11- أحمد غسان سبانو، **دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية**، دار الكتاب العربي، سورية،د ت.

12- أحمد فؤاد الأهواني، **أفلاطون**، دار المعارف، ط4، القاهرة، مصر، 1991.

13- إخوان الصفا، **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**، 4/1، دار صادر، بيروت، لبنان، 2006.

14- إدوارد غابيد، **المدينة في شعر زماننا: الإنسان والمدينة في العالم المعاصر**، 13 مقالة في هذه الموضوعات لمحاضرين ومفكرين فرنسيين، تعريب كمال خوري ،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق 1977.

15- أسامة سراس، **شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم**، دار علاء الدين، دمشق، سورية، 1993.

16- أسعد السحمداني، **الصائبة، الزرادشتية، اليزيدية**، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1997.

17- أفلاطون، **محاكمة سقراط**، ترجمة: عزت قرني، سلسلة محاورات أفلاطون، دار قباء للنشر، القاهرة، مصر، 2006.

18- أوغسطينس، **مدينة الله**، ترجمة، تحقيق: يوحنا الحلو، دار المشرق، سلسلة التراث الروحي، بيروت، لبنان، 2002.

19- إيمنويل كانْت، **تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق**، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1965.

20- برتراند راسل، **المجتمع البشري بين الأخلاق والسياسة**، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، د ت.

21- برهان بن يوسف مهلوبي، **مكانة الخيال في نظرية المعرفة عند ابن سينا**، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2000.

22- توفيق الطويل، **فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها**، ط4، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1979.

23- توما الأكويني، **الخلاصة اللاهوتية**، ترجمة: بولس عواد، ج 5/1، المطبعة الأدبية بيروت، 1881.

24-جان جاك روسو، **أصل التفاوت بين البشر**، ترجمة وتحقيق: بولس غانم، اللجنة اللبنانية، مجموعة الروائع الإنسانية، بيروت، لبنان، 1972.

25-جلال الدين سعيد، **فلسفة الرواق دراسة ومنتخبات**، سلسلة العلوم الإنسانية، مركز النشر الجامعي، الاسكندرية، مصر، 1999.

26-جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.

27-جورج سباين، **تطور الفكر السياسي**، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ط4، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، 2002.

28-جيورجي دوكزي، **النسبة الذهبية: تناغم النسب في الطبيعة والفن والعمارة**، إعداد: يسار عابدين وآخرون، منشورات جامعة دمشق، دمشق، سورية، 2010.

29-حربي عباس وعطية محمود، **الفلسفة القديمة من الفكر الشرقي إلى الفلسفة اليونانية**، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1999.

30-حسام الألوسي، **الفلسفة اليونانية قبل أرسطو**، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، العراق، 1990.

31-خالد حربى، **الكندي والفارابي: رؤية جديدة**، المدارس الفلسفية في الفكر الإسلامي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 2004.

32-خلف الجراد، **علم السياسة ومقدماته اليونانية**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2008.

33-دانتي ألغييري، **الكوميديا الإلهية**، ترجمة: كاظم جهاد، سلسلة التراث العالمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، منشورات اليونسكو، بيروت، لبنان، 2002.

34-روبرت مكيفر، **تكوين الدولة**، ترجمة: حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1965.

35-سلامة نعيمات، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ، ط1، عمان، الأردن، 2000.

36-سيد حسين نصر، **ثلاثة حكماء مسلمين**، دار النهار، ط2، بيروت، لبنان، 1986.

37-عادل فتحي ثابت، **فن أصول الحكم عند ابن ظفر العربي الصقلي السابق على ميكافللي الإيطالي**، دار الجامعة الجديدة، الاسكندرية، مصر، 1988.

38-عبد الرحمن بدوي، **الموسوعة الفلسفية**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984.

39-عبد السلام المسدي، **قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون**، سلسلة دراسات نقدية، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993.

40-عبد العزيز عثمان بن التويجري، **خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل**، دار النهضة، ط1، القاهرة، مصر، 2002.

41-عبد اللطيف محمد العبد، **الإنسان في فكر أخوان الصفا**، مكتبة الانجلو مصرية، مصر، القاهرة، 1997.

42-عبدالرحمن بك سامي، **القول الحق في بيروت ودمشق**، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1981.

43-عبدالسلام محمد نجادات، **الأخلاق بين الفلاسفة المسلمين والفلاسفة اليونانيين دراسة مقارنة**، مجلة علوم إنسانية، السنة السادسة، العدد 40، جامعة البلقاء التطبيقية- الاردن، 2009.

44-علي الطنطاوي، **دمشق: صور من جمالها.. وعبر نضالها**، دار المنار، ط2، جدة، السعودية، 1987.

45-الفارابي، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، دار المشرق ش م م، ط5، بيروت، لبنان، 1986.

46-فوزي متري نجار، **السياسة المَدَنِيَّة الملقب بمبادئ الموجودات**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1964.

47-فيتروفيوس، **الكتب العشرة في العمارة**، إعداد: يسار عابدين وآخرين، منشورات جامعة دمشق، دمشق، سورية، 2009.

48-قادة عقاق، **دلالـــة المدينـــة في الخطاب الشعري العربي المعاصر دراسة في إشكالية التلّقي الجمالي للمكان**، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سورية، 2001.

49-ماريا لويزا برنيري، **المدينة الفاضلة عبر التاريخ**، ترجمة: عطيات أبو السعود، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 225، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997.

50-محمد أمان بن علي الجامي، **العقل والنقل عند ابن رشد**، منشورات كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية. 2006.

51-محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي، **المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية**، تحقيق: حكمت اسماعيل، وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 1993.

52-محمد عابد الجابري، **ابن رشد، سيرة وفكر: دراسة ونصوص**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، 1998.

53-محمد عرب صاصيلا، **تاريخ الفكر السياسي**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2005.

54-محمود خضرة، **تاريخ التفكير الجمالي**، منشورات جامعة دمشق، دمشق، سورية، 2006.

55-محمود شريح، **تجربة المدينة في شعر خليل حاوي**، الفكر العربي المعاصر،ع 10، شباط 1981.

56-محمود قاسم، **نظرية المعرفة عند ابن رشد و تأويلها لدى توماس الاكويني**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، 2000.

57-محيي الدين بن عربي، **زبدة الفتوحات المكية**، اختصار: صلاح الدين التجاني، 2/1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2006.

58-مصطفى النشار، **تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي**، دار قباء، القاهرة، مصر، 2000.

59-مصطفي سيد احمد صقر، **نظرية الدولة عند الفارابي دراسة تحليلية تأصيلية لفلسفة الفارابي السياسية**، مكتبة الجلاء الجديدة، المنصورة، مصر، 1989.

60-مكيافيللي، **الأمير**، ترجمة: أكرم مؤمن، دار ابن سينا، القاهرة، مصر، 2004.

61-نعمان قساطلي، **الروض الغناء في دمشق الفيحاء**، دار الرائد العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1982.

62-هالة أبو الفتوح أحمد، **فلسفة الأخلاق والسياسة: المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس**، دار قباء، القاهرة، مصر، 2005.

63-هناء عبده سليمان أحمد، **أثر المعتزلة في الفلسفة الإلهية عند الكندي**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2005.

64-ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، بيروت، دار الجيل، 1408هـ/1988م.

65-يسار عابدين وعماد المصري، **الفكر التنموي في مقدمة ابن خلدون دراسة للاتجاهات النظرية المفسرة للتنمية الحضرية ولدراسة مؤشر طورالتنمية مع الزمن**، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، مج 25-ع1، دمشق، سورية، 2009.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2011/1/6.